مداخل التأثير الأدبي في المواعظ والرقائق وانعاكساتها على المتلقي

رسالة اللطائف لابن الجوزي نموذجا

للدكتوره

أسماء شوقي بسيوني شريف

المدرس بكلية الدراسات للبنات بالإسكندرية

التقديم:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه.

تعد المواعظ والرقائق فنا من فنون القول احتفى به كثير من أئمة المسلمين ممن وهبهم الله حسن بيان، وذوقا أدبيا، فأبدعوا بين يدي الزمن كنوزا من المواعظ حفت بهالات روحانية سامية، فتعلقت بها القلوب، وخشعت الأفئدة، وحفظت هذه المواعظ مصادر تراثنا التي ضمت بين دفتيها إبداعاتهم ذات الإيقاع المؤثر والمضمون الهادف، والرؤى الفنية التي تكشف عن بصيرة نافذة ومشاعر مرهفة.

وتراثنا الأدبي حافل بكثير من المواعظ والرقائق ذات الرونق الأدبي، ومنها رسالة " اللطائف في الوعظ لابن الجوزي "، وقد اخترتها موضوعا لهذه الدراسة الأدبية للكشف عن مضمونها وما حفلت به من إبداعات أدبية ومداخلات فنية تميزت بها عن نظيراتها من كتب المواعظ والرقائق، وقد تناولت تلك الرسالة في هذا البحث ووزعته على تمهيد وثلاثة مباحث على النحو التالي:

التمهيد: ويحتوي على نبذة عن حيا ة ابن الجوزي وشخصيته بحسبانه واعظا مشهوراً، ثم إشارة إلى أهم مؤلفاته في الوعظ.

وفى المبحث الأول عالجت محتوى رسالة " اللطائف " من خلال أهم الموضوعات التي دارت حولها فصولها، مدعمة بتصور للتناول الإيحائي لابن الجوزي في ألفاظه وتراكيبه وصوره.

وفى المبحث الثاني ألقيت الضوء على اللقطات التي استرفدها من الموروث الديني والصوفي أو استوحاها منه وأجاد توظيفها في إطار مواعظه.

وفي المبحث الثالث: أبرزت رؤيته الإبداعية في استخدام مداخل للتأثير والتشويق.

ثم الخاتمة وتضمنت أهم النتائج التي توصلت إليها، ثم سردت أبرز المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها في الدراسة.

والله أسأل أن أكون قد وفقت في إبراز القيمة الأدبية لهذه الرسالة ودور مثل هذا النمط التعبيري في التأثير على المتلقين في هذا الباب آملة أن ينال هذا

الموضوع عناية الباحثين في حقل الدراسات الأدبية والعوية لما له من أثر بيِّن في إيصال الموعظة إلى القلوب، والتعاطف معها، والتفاعل مع مضمونها حتى يؤدي الواعظ أو الداعية رسالته على النحو الأمثل.

والله من وراء القصد ومنه العون وعليه المعتمد.

وأخيرًا وليس آخرًا أشكر الله ثم كل من مد لي يد العون، وما توفيقي إلا بالله.

د / أسماء شوقي بسيوني شريف
مدرس الأدب والنقد
بكلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنات بالإسكندرية

تمهيد:

تعريف بابن الجوزي

هو عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن عبيد الله بن حمادي بن أحمد بن محمد جعفر الجوزي، يرتفع نسبه إلى أبي بكر الصديق – رضي الله عنه – وعلى ذلك فهو تيمي قرشي، أما نسبته التي اشتهر بها وهي نسبة جده الأعلى جعفر الجوزي، فقيل إنها نسبة إلى محلة الجوز بالبصرة، وقيل إنها نسبة إلى فرضة الجوز إحدى فتحات النهر التي يستقي منها، وقيل إنها نسبة إلى جوزة في داره.

أما كنيته فهي أبو الفرج أو أبو الفضائل، ولقبه جمال الدين، الإمام العالم العلامة، إمام وقته وعلامة عصره في الحديث وصناعة الوعظ.

ولد ابن الجوزي في بغداد سنة ٥١٠ هـ .(١)

كان علامة عصره وإمام وقته برز في علوم كثيرة وانفرد بها عن غيره. وكتب بيده نحوا من مائتي مجلدة، وتفرد بفن الوعظ الذي لم يسبق إليه ولا يلحق شأوه فيه وفي طريقته وشكله وفي فصاحته وبلاغته وعذوبته وحلاوة ترصيعه ونفوذ وعظه وغوصه على المعاني البديعة... بعبارة وجيزة سريعة الفهم والإدراك بحيث يجمع المعاني الكثيرة في الكلمة اليسيرة.(٢)

بدأ ابن الجوزي الوعظ وهو في سن مبكرة، قيل كان في التاسعة من عمره، مما يدل على ذاكرة واعية، وبديهة حاضرة، وذكاء حاد، ونبوغ مبكر، لأن وعظه في

(١) أخبار الأذكياء – لأبي الفرج ابن الجوزي – المقدمة (ا) تحقيق محمد مرسي الخولي – ط ١٩٧٠ م

(٢) المواعظ والمجالس – لأبي الفرج ابن الجوزي – ص ٥ –حققه: محمد إبراهيم سنبل – ط الأولي –١٤١٠ هـ – ١٩٩٠ م .

هذه السن كان له أثره [١] وفاق في وعظه الأقران، ونشأت له في ذلك ملكة عجيبة، وبديهة حاضرة، وتاب على يده الآلاف، وحضر مجالسه الوزراء والحكام

– ومن أقواله المشهورة:

" وضع الله لي القبول في قلوب الخلق فوق الحد، وأوقع كلامي في نفوسهم، فلا يرتابون بصحته، وقد أسلم على يدي نحو مائتين من أهل الذمة، ولقد تاب في مجالسي أكثر من مائة ألف " [٢] ومن آرائه في أثر الوعظ قوله:

" قد يعرض عند سماع المواعظ للسامع يقظة، فإذا انفصل عن مجلس الذكر عادت القسوة والغفلة ! فتدبرت السبب في ذلك، فعرفته. ثم رأيت الناس يتفاوتون في ذلك، فالحالة عامة أن القلب لا يكون على صفة واحدة من اليقظة عند سماع الموعظة وبعدها لسببين:

أحدهما: أن المواعظ كالسياط، والسياط لا تؤلم بعد انقضائها، إيلامها وقت وقوعها

الثاني: أن حالة سماع المواعظ يكون الإنسان فيها مزاج العلة قد تجلى بجسمه وفكره عن أسباب الدنيا، وأنصت بحضور قلبه، فإذا عاد إلى الشواغل اجتذبته بآفاتها، وكيف يصح مع تلك الجوانب أن يبقى كما كان ؟! وهذه حالة تعم الخلق، إلا أن أرباب اليقظة يتفاوتون في بقاء الأثر " [٣]

فأقواله السابقة تتم عن بديهه حاضرة، وذكاء حاد، مكنه من التأثير في سامعيه بالإضافة إلى ثقافات متعددة دينية وأدبية وتاريخية، فكانت أداة طيعة لتأثيره في المتلقي، متضافرة مع أسلوب بياني أدبي قل أن نجده عند كثير من الوعاظ، فكفل له ذلك شهرة واسعة في مجال الوعظ.

مؤلفاته في الوعظ:

---

١) الشفاء في مواعظ الملوك والخلفاء – لأبي الفرج الجوزي – المقدمة ص ١٢– تحقيق د / فؤاد عبد المنعم أحمد –ط ١٩٧٨ م –١٣٩٨ هـ

٢) المرجع السابق ص ١٣

٣) صيد الخاطر – لأبي الفرج الجوزي ص – ١١ دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان

لابن الجوزي مؤلفات كثيرة في مجال الوعظ منها:

- اللطائف في الوعظ.
- المدهش.
- صيد الخاطر.
- الشفاء في مواعظ الملوك والخلفاء.
- المواعظ والمجالس.

– هذا وقد توفى ابن الجوزي سنة ٥٩٧ هـ، ودفن بباب حرب، وكانت جنازته شديدة الزحام، وكان يوم دفنه مشهوداً [١].

۞۞۞

١) اللطائف / ٦ مقدمة التحقيق .

المبحث الأول
إطلالة على المحتوى والتناول الإيحائي

توطئة:

يجتهد الوعاظ والدعاة في الوصول إلى قلوب وعقول جمهورهم، ويتفننون في اصطناع وسائل التأثير عليهم، وإقناعهم بما يقولون، ومعلوم أن التقريرية في إرسال المواعظ لا يكون لها ما للتناول التأثيري الأدبي ؛ ومن ثم يبرع المتميزون من الوعاظ والدعاة في تلوين أساليبهم بصيغ أدبية مؤثرة، ومداخل تعبيرية مشوقة، تجعل لعظاتهم ونصائحهم وقعا في النفوس، وتأيرا في المشاعر، وترقيقا للقلوب.. يترتب عليها قناعة بما يسوق الواعظ، وتفاعلا مع ما يدعو إليه، ومن ثم يحدث الأثر المطلوب، وتتحقق الغاية المرجوة.

ولا مراء في أن الوعظ نمط من الخطابة الدينية التي " تتغيا إثارة المشاعر لفعل الخيرات وتجنب المنكرات، وتوجيه النفوس إلى النفع والإصلاح والهدى والرشاد، ومن ثم كانت موضوعات الخطابة الدينية من أجل الموضوعات الخطابية، لما وقر فى نفوس السامعين من تبجيل الدين وتقديسه."(١)

ونحن في هذه الدراسة بإزاء واعظ مشهور نمق عظاته برونق أدبى رائع، فله من ذلك ضرب من القول جميل، جمع بين الإقناع والإمتاع، فاتصلت معانيه بأمور الدين، ولكن لم يعدم بياناً رائعاً قل من يستطيع أن يرمى بسهم فى ميدانه إلا من كان فى مكانته الأدبية، وقد أسهم ابن الجوزى في ميدان " أدب المواعظ " بهذه الرسالة الرائقة المسماة بـ " اللطائف "

وقد افتتحها بقوله:

" هذا الكتاب رقت عباراته ودقت إشارتة.نثرته عند الإملاء نثراً من فنون، فهو نصيب أكف لا تلتقط الدون جعلته طرازا على ثوب الوعظ، وفصا لخاتم اللفظ، يعمل فى القلب قبل السمع، وعلى الله الرغبة فى النفع."(٢)

فتقديمه لتلك الرسالة يدل على نهجه فيها، من حيث العناية بصياغة عباراتها، واختيار ألفاظها، ورغبته في التأثير في القلب قبل العقل، فهو موطن الإيمان والتقوى... فمواعظه فن من فنون الأدب الإسلامى " تملك التأثير فى سرد عدد من الموضوعات التى ترسم أبعاد الأدب وصلته بالعقيدة، ذلك الموضوع الذى

---

١)راجع الأدب الإسلامى بين الأصالة والمعاصرة – د/ عبد الجواد المحص – ص ١٢٥ ط ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٥م

٢) اللطائف فى الوعظ – ص ١٣

تبين فيه مهمة الأدب ووظيفة الأديب ومهمته فى الحياة، وما يجب أن تحمله رسالة الأدب والأدباء من كلمة صادقة طيبة وفكرة هادفة سليمة ورأى سديد يعالج الأدواء التى يشكو منها المجتمع المسلم". (١)

عرض ابن الجوزي في " اللطائف " فصولا كثيرة بلغت اثنين وخمسين فصلا تدور كلها حول قضايا دعوية تستهدف تحقيق رسم طريق الهداية للعبد المؤمن وتيسير السبيل لمرضاة الرب، والامثال على طريق الطاعة، ومجانبة الغفلة، والابتعاد عن سبل الغواية، والتذكير بالموت، والحث على التوبة، والتحذير من المعصية...وما شابه ذلك من الموضوعات. وسأقف عند بعض فصول تلك الرسالة في هذا المبحث.

***

١) عقوبة الذنب:

أشار ابن الجوزى فى مواضع عدة من " اللطائف " إلى العقوبة التى تنتظر العصاة فى الدنيا والآخرة، ولكنه زاوج ببراعة بين هذه الإشارة وبين لفتة أخرى ألا وهى " غفران الذنب " ولكن قدم العقوبة على سبيل الردع والتحذير.

فنراه يتطرق فى " الفصل الثالث " إلى ذكر " آدم " عليه السلام، فيتخذ منه " عبرة " للخلق وموعظة فيقول: **" إياك والذنوب، فإنها أذلت أباك آدم بعد عز " اسجدوا " وأخرجته من إقطاع " اسكن " مذ سبى ا لهوى آدم، هوى دام حزنه، فخرج أولاده العقلاء محزونين، وأولاده السبايا أذلة، أعظم الظلمة ما تقدمها ضوء، وأصعب الهجر ما سبقه و صل، وأ شد عذاب المحب تذكاره وقت القرب... كان حين إخراجه لا تمشى قدمه، والعجب كيف خطا."**(٢)

تتراءى لنا هذه الموعظة فى إطار تصوير الموقف والحدث، ليخرج من إطار الوعظ المباشر إلى الإيحاء به، لقد كان آدم هو الأنموذج الأمثل لتصوير فكرة مهمة ألا وهي (عقوبة الذنب) وتصوير الحال قبل المعصية وبعدها، فآدم يذوق

---

١) من بدائع الأدب الإسلامى – دراسة نقدية لنصوص من الخطابة والقصة والشعر د/ محمد بن سعد الدبل – ص ٥٤ – من اصدارات نادى المدينة المنورة — بدون تاريخ

٢) اللطائف فى الوعظ – للإمام أبى الفرج بن الجوزى – تحقيق محمد إبراهيم سنبل ص ٢٠ ط دار الصحابة للتراث ١٩٩٠م

مرارة الذل بعد ما سجدت لـه الملائكة " **وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ** "[١]، وسكن الجنة " **وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ** " [٢]. وتعم البلية فتشمل أولاده، بتسلط إبليس على ذرية آدم " **قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ** " [٣]

يجسد ابن الجوزى أثر شعور آدم بالذنب، وما ترتب عليه من إحساس بالذل والألم فى قوله: " أعظم الظلمة ما تقدمها ضوء، وأصعب الهجر ما سبقه وصل،وأشد عذاب المحب تذكاره وقت القرب " [٤] فنرى فى العبارة المفارقات تعمل فى مجال وجدانى واحد فأكسبه سمه نفسية استشعرها القارىء فى رؤية الظلمة بعد الضوء، وإحساسه بمرارة الفراق بعد الوصل فيالـه من عذاب معنوى تخطاه ابن الجوزى إلى تصوير الألم الجسدى فى قوله:

" كان حين إخراجه لا تمشى قدمه والعجب كيف خطا " [٥]

فيالها من عبارة تشف عن اندماج حقيقى بالحدث يدفع القارىء إلى تفاعل شعورى مع حادثة مر عليها آلاف السنين، ولكنها تحيا فى مجال لا شعورى.

وتفتقت قدرات ابن الجوزي الأدبية لتدفع بنا إلى شعور حقيقى بها ؛ بل لندفع بالمتلقي بعد ليعرف ما تجني عليه الذنوب !!.

ويواصل ابن الجوزي معايشته لقصة غواية آدم، وتجسيد عقوبة الذنب قائلا:

" وياعجبا لجبريل بالأمس يسجد له واليوم يجر بناصيته والمدنف يقول: ارفق بى " [٦]

فهى صورة من صور الإذلال النفسى، فقد طرد آدم من الجنة، بعدما سجدت له الملائكة وكانت الجنة سكنه ومأواه !!.

---

١) سورة البقرة – أية{ ٣٤}

٢) سورة البقرة – آية {٣٥}

٣) سورة ص آية {٨٢– ٨٣}.

٤) اللطائف ص ٢٠.

٥) المصدر السابق ص ٢٠.

٦) اللطائف ص ٢٠.

ولم يكتف ابن الجوزى بتصوير الألم النفسى والمادى الذى تعرض له آدم، بل يتابع أحداث هذه القصة المجسدة للشعور بالذنب وعقوبته وأثره على الإنسان. ها هو ذا آدم يهبط إلى الأرض، وتمر السنون ولا ينسى الجنة، وكيف ينساها " **فكان كلما عاين الملائكة تنزل من السماء تذكر المرتع**[1] **فى المربع، فتأخذ العين فى إعانة الحزين.... كان عند رؤية الأملاك يذكر إقطاعه الأملاك فيكاد مما يأسى يجعل الرجاء يأسا، ثم قام بعد مراكب المنى يمشى إلى أرض منى، فلولا تلقن الكلمات مات.** " [2]

ويتوسل آدم إلى رب العالمين، ليصل إلى مرحلة الإنقاذ، فيعلن التوبة رحمة من رب العالمين، وظل بكاؤه شاهداً على الشعور بمرارة الفراق فكان " **يبكى للدار مرة، والجار ألفا، والفراق يقلقل والبعاد يزلزل.** "[3]

فاستثار ببكائه شفق السامع، وكأن أنينه فى أذنيه، فكان دافعاً لتطهير نفس قد غفلت وعيون قد جمدت، وآذان وقرت، وأردفه بتصور شعرى يعرى الحقيقة ويكشف عن الشوق للرفقة والعودة إلى الجنة، بقوله: [4]

سلام على تلك العهود وأهلها
سلام مشوق ذاق ما كنت ذقته
سأبكى الدما شوقا إلى ساكن الحمى
فأفنى به كنز اصطبار ذخرته
ولم أبك بعد الدار عنى وإنما
بكيت لصبر كان لى فعدمته

وهكذا رسم ابن الجوزى بقلمه صورة العقوبة والشعور بمرارة الذنب ووقعه المؤلم، وختمه بغفران من الله وطلب العفو والرحمة، قال تعالى:" قل ياعبادى

---

١) المرتع : أى المكان الخصيب أو مكان النعيم واللهو .
٢) اللطائف ص ٢١
٣) المصدر السابق ص ٢١
٤) المصدر السابق ص ٢٢

الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، إن الله يغفر الذنوب جميعا، إنه هو الغفور الرحيم." (١)

۞۞۞

٢) التأمل في خلق الله.

لم يغفل ابن الجوزى فى مواعظه الدعوة إلى التأمل فى بديع خلق الله تعالى، وذلك عن طريق تصويره الإبداعى لمشاهد الجمال فى الكون والتى تمر بنا فينتبه المؤمنون ويغفل الغافلون.

– " والجمال سمه بارزة من سمات هذا الوجود... إن لم تكن أبرز سماته، والحس البصير المتفتح يدرك الجمال من أول وهلة وعند أول لقاء... كيف يدركه ؟ وكيف يحس به ويقدره ؟. لا شك أن هناك حاسة فى باطن النفس تفطن للجمال وتشعر به وتستجيب له، ولكنها لا تحسب ولا تقدر، وإنما تدركه بداهة بغير تفكير... على طريقة الروح فى الإدراك لا على طريقة الذهن ذى الأبعاد والمقاييس. وقد يتدخل الذهن فى تقويم الجمال ووضع شروط له ومقاييس، ولكنه ليس هو الذى يقدر فى الحقيقة، فهو حين يقوم بوضع الشروط والمقاييس يستمدها فى الحقيقة من البداهة الطليقة التى تدرك الجمال لأول وهلة ودون تفكير. " (٢)

وقد أدرك ابن الجوزى هذه الفطرة التى فطر الإنسان عليها، ولكنه من خلال مواعظه لم يكن يهدف فقط الى تصوير هذا الجمال البارع والتأمل فيه فقط، وإنما هي دعوة الى التأمل فيما وراء هذا الجمال من قدرة المبدع الذي خلق كل شيء فأحسن خلقه "فتبارك الله أحسن الخالقين "، (٣) ولذلك كان تناوله لتأمل الجمال مرتبط بأفكار عقلية تدل على عظمة ملك الله وإبداعه في ملكوته.

ويستوحي ابن الجوزي مشهدا من مشاهد الطبيعة يدل على قدرة الله، وهو مشهد يتراءى لكثير منا في الحياة فنعجب بجماله، وتستشعر نفوسنا الفرح والسرور دون أن يلتفت البعض الى عظمة الخالق الذي أبدعه، ولننظر بعين

---

١)سورة الزمر : ٥٣

٢)منهج الفن الإسلامى – أ – محمد قطب – ص ٨٥ – ط ١٩٨٧م دار الشروق .

٣) سورة المؤمنون آية ١٤

ثاقبة الى قلم أديبنا الذي نثره في إطار من التشخيص الموحي بالحياة والحركة المتدفقة فيقول في " صفة الربيع ":

" إذا تأيمت الأرض من زوج القطر، ووجدت لفقده مس ا لجدب، أخذت في ثياب (وترى الأرض هامدة) [1] فإذا قوى ف قر الق فر، مد أكف الطلب يستعطي زكاة السحاب فساق ال صانع ب علا ي سقي ب علا، فثارت للغياث مثيرة فجاء الغيث بلا مثيرة (ف سقناه الى ب لد م يت)[2] وتأثير صناعة المعلم في البليد أعجب "[3]

– فالأرض جدباء تشتاق إلى الغيث، فتستجدي الأكف الضارعة الله عز وجل، فيرسل إليها السحاب... يدفعه إليها رب العزة بعد انتظار طويل، فيغيث الأرض بالغيث فتحيا الأرض بعد موتها، ولا يغفل أن يزاوج بين تصويره وتصوير القرآن الكريم قال تعالى:" وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج " [4] وقال تعالى: " والله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه الى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور " [5].

ولم يكتف صاحب " اللطائف " برسم هذا المشهد الكوني بل أردفه بما يدعوإلى التفكير في قدرة الخالق الأعظم فامتدت ريشة الفنان لرسم لوحة فنية رائعة تكشف عن دقة إبداعه يقول:

" فلبس الجو مطرفه الأدكن"[6] وأقبلت خيالة القطر[7] شاهرة سيوف البرق، فأخذ فراش الهوى يرش جيش النسيم، فباحت الريح بمكنون المطر، فاستعار السحاب ج فون الع شاق، وأ كف الأ جواد، فامتلأت الأودية أنهارا، كلما مستها يد النسيم حكى سل سالها سلا سل الف ضة، فالشمس تسفر وتنتقب، والغ مام يرش وينسكب، فانع قد بع قد

---

١) سورة الحج آية ٥

٢) سورة فاطر : الآية ٩

٣) اللطائف – ص ٢٣

٤) سورة الحج آية ٥

٥) سورة فاطر آية ٩

٦) الأدكن : المائل إلى السواد.

٧) خيالة القطر : السحابة الممطرة .

الزوجين عقد حب الحب فلما وقعت شمس الشتاء في الطفل نشأ أطفال الزرع فارتبع[1] الربيع وسط بلاد الزمان، فأعار الأرض أثواب الصبا وروح كربها بنسيم الصبا، فانتبهت عيون الأرض من سنة الكرى[2] ونهضت عرائس النبات ترفل في أنواع الحلل، فكأن عين النرجس عين، وورقه ورق فالشقائق[3] تحكي لون الخجل، والبهار[4] يصف حال الوجل، والبنفسج كآثار العض في الغض، والنيلوفر يغفى وينتبه، والأغصان تعتنق وتفترق، والأراييج[5] قد بثت أسرارها إلى النسيم فنم، فاجتمعت في عرس التواصل فنون القيان، فعلا كل ذي فن على فنه، فتطارحت الأطيار مناظرات السجوع، فأعرب كل بلغتة عن شوقة، والحمام يهدر طربا والبلبل يخطب سببا، والقمرى[6] يرجع، والمكاء[7] يغرد والهدهد يهدهد، والأغصان تتمايل، كلها تشكر للذي بيده عقدة النكاح وتتطاول، فحينئذ تجد خياشيم المشوق ضالة وجده. "[8]

وعلى هذا النمط يتراءى لنا من خلال هذه اللوحة الفنية أديب يحاكي جمال الطبيعة، فيجسده تارة ويشخصه تارة أخرى، وقد اجتمعت أمام ناظريه قوى الطبيعة تتدافع لإبراز جمالها، فالمطر ينهمر وقد اعتنق بالبرق، والأودية قد جرت أنهارا يداعبها النسيم، فترقرق الماء كسلاسل الفضة، والغيم يتجاوب مع الشمس فيشع ضوؤها حينا ويجبه حينا آخر، والزهر ينتشر في كل مكان وقد كسا الأرض ثوبا مزركشا هو ثوب الربيع، فينبهر الرائي بمظهره، فشقائق النعمان تزدهي بلونها الأحمر، والبهار بلونه الأصفر، والبنفسج بلونه البنفسجي، وتتمايل الأغصان فتتباعد حينا وتجتمع حينا وتبث الأراييج رائحتها المنعشة، وتتطارح

---

١) ارتبع : دخل وأسرع
٢) الكرى : النعاس
٣) الشقائق :نبات أحمر الزهر
٤) البهار :جنس زهر من المركبات الأنبوبية الزهر
٥) الأراييج : الروائح الطيبة .
٦) القمرى : ضرب من الحمام مطوق حسن الصوت .
٧) المكاء : طائر صغير يألف الريف يجمع يديه ثم يصفر صفيرا حسنا
٨)اللطائف ص ٢٣، ٢٤

الأطيار ألحانا ونمنمات تطرب لها الآذان من بين هدهد وحمام وقمرى، ويكتمل عرس الربيع فكل المخلوقات تشكر مولاها على نعمه.

وهكذا تبدو موعظة ابن الجوزي وكأنها تهدف إلى تأمل عميق وتفكر فى ملكوت الله وبديع خلقه، وهذا شأنه دائما فى عرض موعظته فهو يعمق الفكرة من خلال تصويرها وتجسيدها فتثير فى النفوس شعورا بعظمة الله وقدرته فى ملكوته.

۞۞۞

٣) صفات الله تعالى:

عرض ابن الجوزي في لطائفه عددا من صفات الله عز وجل، مستوحيا معانيها ودلالاتها، وكيف نتعبد الله عز وجل بها، ومن نماذج الصفات التي توقف عندها وعرض دلالاتها: صفة " علم الله الأزلي "، وقد ساقها في معرض الإقناع عن طريق الدليل والبرهان، واستدل بقصص السلف ليؤكد الصفة... وقد يتساءل القائل وهل هناك ميدان لقول آخر بعد ما قدم علماؤنا، وهل مجال العظة والعبرة هو مجال لعرض الأدلة العقلية والنقلية...وللإجابة على ذلك نقول: إن ميدان المواعظ ميدان فسيح يمتد ليشمل كل ما يوقظ النفس الإنسانية ويرشدها إلى طريق الهداية والرشاد بالإضافة إلى كونها من فنون النثر الصادر من هدي الإسلام، فتحمل طابعا مميزا في " إثارة العقول وتنبيه الأذهان، وحملها على الامتثال والإذعان وفي التأثير في الأرواح وجذب القلوب، وفي استمالة النفوس بإثارة العواطف"[١].

عرض ابن الجوزي صفة " علم الله " عز وجل في الفصل الخامس من اللطائف حيث بيَّن علم الله الأزلي الذي قضى لقوم بالحسنى،وعلى قوم بالشقاء، فلا مهرب من قضاء الله، ولم يخص الإنس فقط بل شمل الجن كذلك.

---

١) من بدائع الأدب الإسلامى – د/ محمد سعد الدبل ص ٤٧

يقول ابن الجوزي:

"سابقة الأزل قضت لقوم بدليل " سبقت "[١]، وعلى قوم بدليل " غلبت علينا شقوتنا "[٢] فواأسفا أين المفر. توفيق " سبقت " نور قلوب الجن " فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا[٣]وخذلان " غلبت " أعمى بصائر قريش فقالوا (أساطير الأولين)[٤]. أهل الشمال في جانب البعد، وأهل اليمين في مهب شمال القرب، ما نفعت عبادة " إبليس " وبلعام "[٥]" ولا ضرعناد السحرة "[٦]

– ومن خلال هذا الإجمال والإشارات الدقيقة، بدأ صاحب التصنيف في تفسير وتفصيل يوضح به ما أوجزه سابقا، فيسوق من الهدي النبوي، وقصص القرآن ما يدعم به قوله، فقد أشار أولا إلى إيمان الجن برسول الله – صلى الله عليه وسلم – رغم اختلاف جنسهم عنه، وإلى كفر قريش به رغم كونه منهم لسبق القضاء، ويتعجب السامع فيأتي من حوادث الدهر وآثار السلف ما يدل على صحة رأيه، فيستجيب السا مع فيقول:

" وحَّد قس " [٧] وما رأي الرسول، وكفر ابن " أبيٍّ " [٨] " و قد صلى معهم "[٩] !!.

وكأنه يؤكد بذلك على أن دلائل الأحوال لا تنافي الحقائق، فقد وحد بالله من لم ير الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم مثل قس، والنجاشي، وكفر به من رآه وصلى خلفه وهو عبد الله بن أبي بن سلول رأس وزعيم المنافقين.

---

١)سورة الأنبياء آية ١٠١

٢) سورة المؤمنون آية ١٠٦

٣) سورة الجن آية ١

٤)سورة الأنفال آية ٣١

٥) بلعام : كان من عباد بنى اسرائيل ثم أصابه مرض الرياء، فضل وهلك فى نهاية أمره، وقد ذكر ابن الجوزى قصته مع موسى فى كتابه المدهش .

٦) اللطائف ص ٢٦

٧) قس : هو قس بن ساعدة أحد حكماء العرب . عارف بالله متكلم مشهور

٨) ابن أبى : كبير المنافقين بالمدينة المنورة، وهو عبد الله بن أبى بن سلول .

٩) اللطائف ص ٢٦

وقد تقضي سابقة الأزل بإيمان يهودي في موقف فريد من نوعه، سرده ابن الجوزي ليدلل على قدرة الله وقضائه فيقول:

" دخل الرسول □ عليه الصلاة والسلام الى بيت يهودي يعوده فقال له: " أسلم تسلم " فنظر المريض الى أبيه فقال له: " أجب أبا القاسم فأسلم "[1]... كان في ذلك البيت غريباً مثل " سلمان منا " فصاحت ألسنة المخالفين: ما لمحمد ولنا، ولسان الحال يقول: مريضنا عندكم !

كيف انصرافي ولي في داركم شغل ؟!.

المناسبة تؤلف بين الأشخاص. "[2]

- ثم تطرق من تلك الإشارة إلى إيضاح أعمق وأبعد، يكمن في أن هؤلاء اليهود وإن جحدوا نبوة محمد – ﷺ – إلا أنهم كان يعتقدون بصحة نبوته في أعماق قلوبهم، ولذلك استجاب اليهودي لدعوة الرسول – صلى الله عليه وسلم – حينما رأى فيها نجاة لابنه من النار.

– وكان لإيراد ابن الجوزي لقصة " سلمان " في مجال عرضه لصفة " علم الله الأزلي " دلالة بينة ومقنعة للقارىء والسامع فسلمان الشاب الفارسي الذي كان يدين بالمجوسية أصبح مسلما كيف ولماذا ؟ يجيب الإمام ابن الجوزي فيقول:

"لما قضيت في القدم سلامة " سلمان " حمله صباه نحو الدين. كان أبوه على اعتقاد المجوس،فعرج به دليل التوفيق إلى دير النصارى، فأقبل يناظر أباه في دين قد أباه فلم يكن لأبيه جواب إلا القيد، فهذا الجواب المرذول قديم من يوم (أنا أحيي وأميت)[3] (ثم نكسوا)[4] (قالوا حرقوه)[5] فنزل في البداية ضيف (ولنبلونكم)[6] ولولا مكابدة البلاء ما نيلت مرتبة (رب أشعث أغبر لو أقسم على الله

---

١) أخرجه البخارى (٢١٩/٣) برقم (١٣٥٦) كتاب الجنائز، وأخرجه أبو داود (١٨٥/٣) برقم (٣٠٩٥)

٢) اللطائف – ص ٢٧

٣) سورة البقرة آية ٢٥٨

٤) سورة الأنبياء آية ٦٥

٥) سورة الأنبياء آية ٦٨

٦)سورة البقرة الآية ١٥٥

لأبره)[1] فسمع أن ركباً على نية السفر فسرق نفسه من حرز أبيه، ولا قطع، فركب راحلة العزم يرجو مطلب الغنى و غاص في مقر بحر البعث ليقع على بدرة الوجود فصاح به الهوى: الى أين فقال (إني ذاهب إلى ربي)[2] وقف نفسه على خدمة الأدلاء وقوف الأذلاء. "[3].

– فنلاحظ أنه قدم لقصة سلمان الفارسي بقوله: " لما قضيت في القدم سلامة سلمان " ليجذب انتباه القارىء الى تتبع المراحل التي مرت بسلمان، وكانت كل واحدة منها كفيلة برد العزم وانكسار الأمل، ولكن سبق السيف العذل فقد قضت إرادة الله منذ القدم بسلامة سلمان من رذيلة الكفر، وكانت أولي مراحله مع أبيه، فكان استشهاد ابن الجوزى بالآية القرآنية الكريمة إيحاء برد أبيه حين معارضته، فقوله تعالى: " أنا أحيي وأميت " توحي بمعارضة ممتزجة بتكبر وعناد ثم أتبعها بقوله تعالى: " ثم نكسوا " دلالة على انهزام أبيه أمام إصرار سلمان وتمسكه بالحق، ثم قوله تعالى " قالوا حرقوه " والتي توحي بمرحلته الأخيرة مع أبيه حيث الابتلاء والاختبار لينال مرتبة (رب أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره)... ويسافر هاربا من أبيه بل من " حرز أبيه " كما عبر ابن الجوزي، ليدل على شدة تمسك أبيه به، وقدرته على الانفلات منه بصعوبة فركب " راحلة العزم " وهي أقوى الرواحل وأشدها، فمن امتطاها بلغ الغاية.

ولم تكن هذه هي المرحلة الأخيرة، بل بداية طريق قد حف بالأشواك، فيها جر الى أرض العرب بعدما دله النصارى على علامات نبوة النبي المنتظر، ورحل مع رفقة سوء لم يرفقوا به (وشروه بثمن بخس)[4] فاشتراه يهودي بالمدينة، ولكن شعوره بالرق قد هان أمام رؤية يثرب، واستبشر بقدوم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وينال حريته مع إسلامه كما قضت بذلك سابقة الأزل.

– لم يكتف ابن الجوزي بذلك بل استوحى إشارات أخرى من التاريخ ؛ ليتخذ منها دليلا وبرهانا على " علم الله الأزلي " فقال: **" سبق العلم بنبوة موسى "**

---

١) أخرجه الحاكم فى المستدرك (٣٢٨/٤) كتاب الرقائق وقال عنه – صحيح الإسناد

٢) سورة الصافات الآية ٩٩

٣) اللطائف ص ٢٨

٤) سورة يوسف الآية ٢٠

وإيمان آسية فسيق تابوته إلى بيتها فيه طفل منفرد عن أم الى إ مرأة خالية عن زوج " قرينان مرتعنا واحد " !! . [1]

– فموسى نبي بني إسرائيل يساق تابوته الى قصر فرعون فتلتقطه آسية ويربى في بيت عدوه، وتحرم عليه المراضع ليعود الى أمه ليطمئن قلبها، وتؤمن آسية إمرأة فرعون فسبحان الله، فقد سبق علم الله بكل هذا الذي يفوق عقول البشر.

وبذلك ومن خلال عرض هذه الموعظة وما أوحت به من دلالات وإشارات نرى ابن الجوزي وقد تمكن من عرض موعظته بأسلوب يجمع بين الترتيب والإقناع ولمحات من الإمتاع الذي يناسب فئات من البشر على اختلاف مستوياتهم الثقافية... حيث اتخذ من القرآن منبعا فياضا لسوق أقواله وآرائه بأسلوب أدبى رائق لتطمئن إليه القلوب وتنصت إليه الآذان.

٤) التوبة:

على الرغم من أن ابن الجوزي مال إلى عرض " صفات المؤمنين " في لطائفه، فتوجه بناظريه ونثر بقلمه فصولا في عرضه لصفات هذه الطائفة التي تقوم الليل وتخلص في العبادة من خلال عرضها على مرآة التقوى، وخلاصها من فتنة النفس، ولكنه لم يغفل التوجه إلى نفوس أخرى قد انزلقت وراء شهوتها وسوفت توبتها وبعدت عن الإنابة، فكيف كان خطابه لها ؟... نجده قد شد من عزم القول وشذب عصى القرع، فيتراءى لنا وقد تجسد أمامه المذنب، فيصيح به مناديا داعيا يقول:

" يا مؤخر توبته بمطل التسويف لأي يوم أجلت كنت تقول: إذا شِبْتُ تُبْتُ، فهذي شهور الصيف عنا قد انقضت، لو كان لسيف عن عزيمتك جوهرية لقيك موت الهوى بحب ظبته. كل يوم تضع قاعدة الإنابة،ولكن على شفا جرف كلما صدقت لك في التوبة رغبة... حملت عليها جنود الهوى حملة فانهزمت، ويحك تعطر بالاستغفار فقد فضحتك روائح الذنوب اذبح الهوى بسكين العزيمة فما دام الهوى حياً فلا تأمن قلب قلبك. اجعل بكاءك في الدجى شفيعا في الزلل،

---

١) اللطائف ص ٢٧

فزند[1]الشفيع توري[2] نار النجاح. اكتب بمداد الدمع حسن الظن إلى من يحققه، ولا تقنع في توبتك إلا بمكابدة حزن " يعقوب " أو بصبر " يوسف " عن الهوى، فإن لم تطق فبذل إخوته يوم " وتصدق علينا" [3]

ها هو ذا ابن الجوزي يهيب بمؤخر التوبة موجها إليه اللوم، ملفتا للانتباه، والمقام يدعو إلى هذه العبارات اللاهثة السريعة لتناسب الدعوة إلى سرعة التوبة، فلا مجال للتسويف ولا وقت لتأجيل الإنابة فالموت يدركنا لا محالة، والإنسان على شفا جرف هار، قد ينهار فى أى لحظة، وجنود الهوى تحيق بنا، فلا وسيلة للدفاع إلا بسكين العزيمة فهى قاطعة لحبائل الهوى لا محالة.

ونراه في نسق آخر وقد استرسل فى القول، ومال إلى الهدوء يخطو بخطوات هادئة نسمع من خلالها أنات التائب ونرى عبراته تتحدر فى دجى الليل لتكون سبيله إلى التوبة...ولننظر بإمعان إلى دقة استخدامه لهذه الكلمات ذات التأثير والإيحاء، فقوله " هذي شهور الصيف عنا قد انقضت " بما توحي من تسويف وتأجيل وتعلل بالأماني !!.

وقوله " سيف العزيمة " فالعزيمة تحتاج إلى قوة وإصرار كأنها سيف صارم يقطع أسباب الهوى متجهة إلى توبة لا رجعة فيها.

وقوله " جنود الهوى " فقد جعل للهوى جنودا هى حبائل الشيطان فلا تقطع إلا بسيف العزيمة.

فجسد فى هذه الموعظة رؤيته للتراخى فى التوبة وصور المغريات الدنيوية وهى تتدافع لتلقى بظلالها أمام التائب ليرجع عن هدفه، ولكنه لم يكتف بذلك بل وضع له دواء لهذه العلة فجعل من العزيمة علاجا لتراخيه، وسيفا قاطعا لحبائل الهوى التى تقلب قلبه، ونصحه بالصبر والمكابدة لمغالبة الهوى كما صبر يوسف عليه السلام.

٥) الموت:

---

١) الزند : العود الأعلى الذى يقتدح به النار

٢) توري : توقد وتشعل

٣) اللطائف ص ٣٣

ومن المواعظ التى أولاها ابن الجوزي عنايته، وحشد لها البراهين والدلائل وحرص على التذكير بها " الموت " ووجوب الاستعداد له، وقد نبه على ذلك في كثير فى كتبه، يقول في كتابه " صيد الخاطر:

" يجب على من لا يدري متى يبتغيه ا لموت أن يـ كون مـ ستعدا، ولا يغتر بالشباب والصحة، فإن أقل من يموت الأشياخ، وأكثر من يموت الشباب، ولهذا يندر أن يكبر، فا لحذر ا لحذر من المعا صي !! فإن عواقبها سيئة، فكم من معصية لا يزال صاحبها في هبوط أبدا من تعثير أقدامه، وشدة فقره وحسراته على ما يفوته من الدنيا.

– بل ويبكي عند الموت فيقول له تلاميذه: يا إمام ألست قد فعلت كذا وكذا ؟ ! فقال: والله إنني أخشى أن أكون قد فر طت ونا فـ قت فيحق علي قوله تعالى: " وبدا لهم من الله ما لم يكو نـوا يحتـ سبون * وبدالهم سيئات ما كسبوا وحاق بهم ما كانو به يستهزئون "[1]

ثم قال: ولقد تاب على يدي في مجالس الذكر أكـ ثر من مائتي ألف، وأسلم على يدي أكثر من مائتي نفس.

ولقد جلست يوما فرأيت حولي أكثر من عشرة آلاف ما فيهم إلا من قد رق قلبه، أو دمعت عينه، فقلت لنف سي: كـ يف بك إن نجوا وهلكت فـ صحت بلـ سان و جدي: إ لهي و سيدي إن قـ ضيت عـ لي بالعذاب غدا فلا تعلمهم بعذابي، صيانة لكرمك لا لأجلى. لئلا يقو لـوا عذب الله من دلّ عليه. " [2]

– فإذا انتقلنا إلى " اللطائف " وجدناه يحذر وينذر، ويصول ويجول في ميدان الوعظ يحاول الإنقاذ ما استطاع إلى ذلك سبيلا، ويشير إلى حال السابقين ليكونوا عبرة للاحقين، وكان له من خشية الرسول – صلى الله عليه وسلم – وصحابته الأبرار خير معين يتزود به في وعظه يقول:

---

١) الزمر – { ٤٧، ٤٨}

٢) رحله إلى الدار الأخرة –أ– محمود المصرى – ص ٧ /٩ بتصرف دار التقوى ط الثانية – ١٤٢٤– ٢٠٠٣م

" صاح بالا صحابة وا عظ (ا قترب للا ناس ح سابهم)[1] فجز عت للخوف قلوب فجرت للحزن عيون (فسالت أود ية بـ قدرها)[2] انق سم القوم عند الموت فبعضهم صابر الخوف حتى انقضى نح به " كع مر " كان يقول عند الرحيل: الويل لعمر إن لم يغفر له.[3]

ومنهم من أقلقه عطش الحذر، فتبرد بماء الرجا " كبلال" كا نت زوجته عندالموت تقول: واكرباه، وهو يقول:واطرباه غدا ألقى الأحبة محمدا وصحبه." علم بلال أن الإمام لا ينسى المؤذن فمزج ا لموت براحة الرجاء "[4]

–فابن الجوزي يحرك أوتار الوجل، فتسعى النفس بخطى العزيمة إلى إدراك المراد فارتكز في تذكيره بالموت على الترهيب منه، ليوقظ نفوسا قد غفلت، ولذلك صرح في أكثر من موضع بالتفكر في قرب الرحيل والاستعداد له فيقول:

" من تفكر في قرب رحيله تشاغل بالتزود، ولبئس ما صنع بائع نف سه النفيسة بالأعراض الخسيسة".[5]

ويدعم تحذيره بصور إيجابية تزرع الخشية في النفوس فيرتجف إهابها،يقول:

" كأنك بك في لحدك على فراش الندم، وإنه والله لأخشن من الجندل، فازرع في ربيع حياتك قبل جدوبة أرض شخصك، وادخر من قوت قدرتك قبل زمان عجزك، واعتد رحلك قبل رحيلك مخا فة الفقر... الحذار الحذار " أن تقول نفس يا حسرتى " [6]

فهي دعوة للتزود بالأعمال الصالحة، والاستعداد للرحيل قبل أن يجد الإنسان نفسه في اللحد وقد غشاه الندم على فوات المراد فتصويره للإنسان وقد وضع في لحده يوقع فى قلبه خوفا وخشية، وفى قوله " فراش الندم " نلاحظ أن

---

١) سورة الأنبياء الآية ١

٢) سورة الرعد الآية ١٧

٣) ورد هذا القول لعمر فى الأثر المروى بصفة الصفوة لابن الجوزى (٢٩١/١) عن عثمان بن عفان والزهد لأحمد (١٥٥) والزهد لابن المبارك (١٤٧/١٤٦)

٤) اللطائف ص ٨٣/٨٢ بتصرف ٩/٧ بتصرف

٥) اللطائف ص ١٣٩

٦) اللطائف / ٤٢

إضافة فراش إلى الندم إيحاء بالعجز المكلل بالتأسف، وفى وصفه للفراش بأنه أخشن من الجندل ما يوحى بالعذاب والهوان الذى يتعرض له الإنسان العاصى فى لحده، وهى مقدمة مكونة من صورة ذات أبعاد، ولكل بعد منها تأثير فى إيقاظ الإنسان من غفلته وقد أصبح يعانى سكرات الغرق ويتلهف إلى من ينقذه، فتمتد إليه يد واعظنا فتتلقاه... فإذا به يزداد انتباها.

ثم نراه يقول:" ازرع فى ربيع حياتك قبل جدوبة أرض شخصك، وادخر من وقت قدرتك قبل زمان عجزك " فتقع من نفسه موقعها، وتتمكن من فؤاده، ويعاود الواعظ تحذيره بأسلوب مباشر فيقول:" الحذار...الحذار " أن تقع فى الهلكة يقوم تقول نفس " ياحسرتى ".

ويعاود منبها من يأمل في طول العمر ويؤجل التوبة فيقول: **" يارا طا مناه بخيط الأمل، إنه ضعيف الفتل، لو فتحت عين ال تيقظ لرأ يت حيطان العمر قد تهدمت فبكيت على خراب دار الأ مل... ج سمك عندنا وقلبك على فراسخ، لا بالتسويف ترعوي، ولا بالتخويف تستوي ضاعت مفاتيحي معك. "**[1]

فهذه الخاتمة توحي بيقينه أن هناك فئة من السامعين حاضرة بأحسادها بينما غابت العقول والقلوب، فهي بعيدة عن التفكر والخشية فلا يجدي معهم ترهيب ولا ترغيب، وهذه الفئة هي ذات الأمل الطويل في الدنيا يركن صاحبها غالبا إلى الشهوات والملذات، ولذلك قال الإمام القرطبي: " طول الأمل داء عضال، ومرض مزمن ومتى تمكن من القلب فسد مزاجه واشتد علاجه ولم يفارقه داء ولا نجح فيه دواء."[2]

– ثم شبه مواعظه بمفاتيح القلوب، قد ضاعت مع هذه الفئة سدى بدون رجاء.

وهكذا نوع ابن الجوزي في موعظته، فبدأ باستنباط الأحوال من السابقين، وصور لهم خشية الصحابة ووجلهم من الآخرة، ثم صرح بدعوته للعمل الصالح وزجر من باع آخرته بدنياه، وأيقظ الرهبة في النفوس من خلال تذكيرها بموقعها

---

١) اللطائف ص ٤٢

٢) رحلة إلى الدار الآخرة – محمود المصرى – ص ٨٣/٨٤ بتصرف

من اللحد يوم لا ينفع الندم، وختمها بتوجيه اللوم الى الفئة الغافلة التي لا يجدي معها تحذير، حيث تعلقت نفوسهم بآمال فانية، فأيقن بضياع قوله وتذكيره ؛ لأن هذه الفئة أحبت الدنيا ورغبت فيها عن الآخرة، ولذلك فإنه تولى التحذير من الدنيا في غير موضع من مواعظه، فكيف تناول عرض ذلك في مواعظه وكيف ساقه في طيات كلامه، هذا ما سنعرض له في الفقرة التالية.

٦) التحذير من الدنيا:

من المعلوم المتقرر أن الإنسان إذا أحب الدنيا أنس بها وبشهواتها ولذاتها وعلائقها، وثقل على قلبه مفارقتها، فامتنع قلبه عن التفكر في الموت الذي هو سبب مفارقتها، وكل من كره شيئا دفعه عن نفسه، والإنسان مشغول بالأماني الباطلة، فيمني نفسه أبدا بما يوافق مراده من البقاء في الدنيا."[١]

لذلك تطرق ابن الجوزي إلى التحذير منها فتناول في الفصل الثالث والثلاثين من لطائفه وموضوعه " عقوبة الحرص على الدنيا "، فعرض في تلك الموعظة أمر الدنيا وحرص الإنسان عليها في صورة أدبية رائقة، يستميل من خلالها السامع ويستهديه ويحذره من مغبة الوقوع في شراكها يقول:

"**الدنيا نهر طالوت، والفضائل قد نادت (فمن شرب منه فليس منى)[٢] فإذا قامت الفاقة [٣] مقام ابن "أم مكتوم " و قع لها (إلا من اغترف غرفة)[٤] فأما أهل الغفلة فارتووا فلما قام حرب الهوى ثبطتهم البطنة فنادوا بألسنة العجز (لا طاقة لنا اليوم بجالوت)[٥]وأقبل مضمر الجسد فحاز قصب السبق بالظفر.** "[٦]

– لم ينكر ابن الجوزي حب الإنسان للدنيا، ولكنه لم يصرح بذلك، فالإنسان فطر بغرائزه على حب الدنيا وشهواتها. والدين هو الرادع عن الوقوع في حبائلها،

---

١) رحلة إلى الدار الآخرة – محمود المصرى – ص٨٥ بتصرف

٢) سورة البقرة : الآية ٢٤٩

٣) الفاقة : الفقر والحاجة

٤) سورة البقرة : الآية ٢٤٩

٥) سورة البقرة : الآية ٢٤٩

٦) اللطائف – ص ٩٣

ولكنه أراد أن يرسم صورة تدعو إلى التنفير منها وبأسلوب لم يكن معتادا من الوعاظ فى التنفير من الدنيا، فهى نهر أمام إنسان عطشان، ولكن كلما شرب منه ازداد عطشا فلا يرتوى (إلا من اغترف غرفة بيده) وكأنه يقول لبنى آدم: خذوا منها بقسط ولا تنهلوا منها فتنسيكم الآخرة، وقد جسد عقوبة الحرص على التزود بزاد الدنيا دون الآخرة بقوله تعالى: " لا طاقة لنا اليوم بجالوت " فمن نهل منها أصابه العجز والفتور، ومن زهد (حاز قصب السبق) فهو يجمع فى أسلوبه بين الترغيب والترهيب، الترهيب بالتحذير من الدنيا وعقوبة الحرص عليها، وبينما رغب فى الزهد فيها وبين ثوابه وجزاءه.

وهنا نلحظ أنه لم يمل إلى استخدام الوعظ المباشر، بل لجأ إلى أسلوب التصوير الموحى بالمعنى، فلفظ (نهر) يوحى بنبض الحياة وجمالها، ولكن نهر الدنيا ليس كأى نهر، فهو يضيف كلمة (نهر) إلى (طالوت) والقارىء يفطن إلى سر هذا الربط وكأنه يهدف إلى إقناع السامع باعترافه أولا بجمال الدنيا ثم يحذرهم من مغبة الإقبال المفرط عليها فى إطار من الموعظة التي تجذب القلب والعقل معا، ولهذا لم يعدم مجالا لتوضيح جمال الزهد فيها بقوله: " وأقبل مضمر الجسد فحاز قصب السبق " فمضمر الجسد كناية عن الزهد وقصب السبق كناية عن الفوز فى نهاية المطاف وهو من يفوز بالجنة دون عجز أو تعثر.

ولم يكتف ابن الجوزى بذلك، بل اقتبس من الصور الدنيوية ما يفصل به تحذيره، ويضفى عليه حيوية وإبداعا، فيقول:

" وقع نحل على " نيلوفر " فأعجبه ريحه، فأقام على ورقه المنتشر، فلما جاء الليل تقبض الورق "[1].

فالدنيا كالنيوفر جميل اللون والرائحة، فالدنيا تجذب البشر إليها برونقها، كما يجذب الزهر النحل إليه فاذا مااطمئن خنقه بانقباض أوراقه عليه، كذلك الدنيا إذا تعلق البشر بحبائلها تعثر الانفلات إلا بمجاهدة، فإذا ما انتهى العمر فلا مجال لعودة ولا توبة.

ويشتد تحذيره في موقف آخر ترتفع فيه نبرات دعوته إلى الارتفاع عن شهوات الدنيا، فالدنيا كما يراها:

---

١) اللطائف ص ٩٤

"سوق فيها ضجيح الشهوات، فاذا اشتغلت بها فمن يسمع المواعظ، نادى بالصالحين " أمير نمل " التوفيق عند ممر " سليمان " البلاء كفوا أكف الطباع عن تناول لقم الهوى (لا يحطمنكم سليمان وجنوده) [١]

وهكذا يتضح لنا أسلوب ابن الجوزي في لطائفه، إذ يزاوج بين التصريح بالتحذير تارة وتجسيد الرؤية عن طريق القصة تارة أخرى، فمن اشتغل بالشهوات صكت أذنه عن سماع الموعظة فيهلك كما يهلك الغافلون، بينما ينتبه الصالحون كما انتبه النمل ونجا من سليمان وجنوده. واتجه إلى الترغيب تارة أخرى، فقال مقتبساً من حديث الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم – (سبعة يظلهم الله – عز وجل – في ظله يوم لا ظل إلا ظله منهم رجل دعته إمرأة ذات جمال إلى نفسها فقال: إني أخاف الله)[٢]

" اسمع يا من أجاب عجوزاً شوهاء لاح للأولياء حب المشتهى فمدوا أيدي التناول فبان للبصائر خيط الفخ، فطاروا بأجنحة الحذر، فوصلوا إلى مفازة الفوز ولسان حال كل منهم ينادي: (ياليت قومي يعلمون) [٣]

وهنا عمد ابن الجوزي في تحذيره من الدنيا وشهواتها، الى الترهيب منها بوصفها بأرذل الأوصاف؛ لتكون مدعاة للهروب منها والتنفير من ملذاتها، فهي نهر طالوت وهي ممر سليمان، وهي عجوز شوهاء، وهي غدير تمساح وأرض مسبعة وغيرها من الأوصاف التي وصف بها الدنيا ولم يتسع المجال لذكرها.

۞۞۞

٧) الإخلاص في العبادة:

" العبادة هي الغاية الأولى من خلق الإنسان، يقول الله تعالى: " وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون "[٤] وقد شرعتها الشرائع السماوية، ودعت إليها الأديان في صورها المختلفة، وجاءت بها الشريعة الإسلامية في صورة أكمل،

---

١) اللطائف ص ٦٩

٢) قال الألبانى فى صحيح الجامع (٢٠١/٣) برقم ٣٥٩٧ حديث صحيح رواه مالك والترمزى عن أبى هريرة وأبى سعيد، ورواه أحمد والبخارى ومسلم والنسائى عن أبى هريرة، ورواه مسلم عن أبى هريرة وأبى سعيد معا

٣) اللطائف : ص ٦٩

٤) الذاريات : ٥٦

وعنى وشغف بها النبي – صلى الله عليه وسلم – عناية وشغفا يفوقان الوصف، وجاءت عشرات من الآيات القرآنية ومئات من الأحاديث النبوية، ترغب فيها وتنوه بشأنها وتشيد بذكر فضائلها وتحرض على التنافس فيها، وتثني على المكثرين منها والمعنيين بها، وتندد بالراغبين عنها أو المقصرين فيها."[١]

وقد عني ابن الجوزي عناية خاصة بالدعوة إلى حسن العبادة والإخلاص فيها، وتقوى الله والتضرع له . سبحانه . رجاء غفرانه، وقيام الليل، والزهد في الدنيا.

عالج ابن الجوزي هذا المقصد في موعظته " تذكرة الغافلين عن عبادة الليل " فها هو ذا يهتف بالآذان لتسمع!! وبالقلوب الغافلة لتعي وتنتبه في إطار تجسيد عوامل الغفلة عن هذه العبادة وتصوير حال العابدين يقول:

" سفر الليل لا يطيقه إلا مضمر المجاعة، تجتمع جنود الكسل فتتشبث بذيل التواني، فتزين حب النوم وتزخرف طيب الفراش، وتخوف برد الماء، فإذا ثارت شعلة من نار الحزم أضاءت بها طريق القصد فسمعت آذان اليقين هاتف: " هل من سائل " ؟!

فقمت أفرش خدي في الطريق له ذلا وأسحب أجفاني على الأثر

نفس المحب في الليل على آخر نفس، وفي المتعبدين قوة " وهم يستغفرون "، صراخ الأطفال غير بكاء الر جال... سهر الل يل هودج الأحباب،يوقظ نسيم الأسحار أعين ذوق الأخطار، فلو رأيتهم !!

* وقد لاحت الجوزاء وانحدر النسر *

قد افترشوا بـ ساط " قيس " !! و باتوا بل يل " النابـ غة " !!. إن نامو توسدوا أذرع الهمم وإن قاموا فعلى أقدام القلق، كأن الـ نوم حـ لف على جفاء أجفانهم:

هذا رضاك نفي نومي فأرقني فكيف يا أمي إن كنت غضبانا

مازالوا على ما مطايا الأقدام إلى أن نـمَّ النسيـــم بالسحـــر، و قام الصارخ ينـعي الظـلام، فلما تمخض الدجي بحمل الـ سحر تـ ساندوا إلى رواحل الاستغفار. "[٢]

---

١) منهاج الصالحين – أبو الحسن الندرى – ص ٦١ – ط ١٩٨٤ م

٢)اللطائف / ٣٠.

وبإنعام النظر في هذه الموعظة نجد ابن الجوزي فرق بين صنفين من الناس: فريق تجتمع عليه جنود الكسل مع خور العزيمة، ولكن ما هي جنود الكسل ؟... إنها حب النوم، وطيب الفراش، والخوف من الماء البارد... ولكن لماذا أطلق عليها " جنودا " هل لشد الانتباه إليها، أم إنها فعلا مثل الجنود التي تحارب العزيمة وقوة الإيمان، إنها جنود الشيطان وهذه الجنود لا تخص فريقا دون فريق، ولكنه قرنها بذيل التواني، وهو خور العزيمة. أما الفريق الآخر فهو من ثارت في نفسه شعلة الإيمان فأضاءت له طريق العبادة، حيث دعاهم داعي الإيمان للتقوى، دعاهم وقت السحر فنهضوا إلى صلاتهم واستغفارهم.

فهذه رؤية إبداعية لإبن الجوزي، يعرض من خلالها صورة العابدين مستوحاة من القرآن والسنة، مدعمة بصورة جمالية، وألفاظ موحية، فسهر الليل للعبادة راحلة تقود إلى حب الله، وقد شبه سهرهم الطويل بسهر العشاق مع اختلاف المعشوق لدى كل فريق، فهؤلاء عشاق للذات الإلهية، والآخرون عشاق لدنياهم.

ونرى النوم وقد تباعد عن أجفانهم وجفاها، فأحبوا السهر إبتغاء مرضاة الله... واتخذوا من أقدامهم مطايا تحملهم، وكأن النفوس اتجهت إلى روحانية لا ترتبط بالجسد إلا ارتباط الإنسان بمطيته، فتعلقت القلوب بمعبودها ، فكان الاستغفار راحلتهم في آخر ليلهم.

ويؤكد ابن الجوزي على الإخلاص في العباده وصدق التوجه بها لله ﷻ يقول:

" لاتعجبوا بصورة التعبد، وتلمحوا حسن المقصد، ليس كل م صل متعبد، ولا كل صائم بزا هد، ولا كل باك بخا شع ولا كل مت صوف بصاف."[1]

فالصدق في العبادة موطنه القلب، فإذا خشع القلب خشعت الجوارح، فالمؤمن الصادق هو من يصدر في عبادته عن خشية وخضوع وامتثال لا عن زهو وخيلاء ورياء، ومن هنا كان حرص ابن الجوزي إلى الدعوة للإخلاص في العبادة، والعمل بالطاعات، والبعد عن المعاصي كما دعا دعوة يحفها الإنذار والترهيب إلى إحياء القلوب بالعبرات قبل أن يصيبها جمود التراخي والإذعان لطول الأمل فقال:

" ياجامد العين اليوم غدا تدنو الشمس إلى الرؤس فتتفتح أفواه مسام العروق فتبكي، كأنك بالسماء قد نفضت أكمامها لسرعة فورانها، وانتثرت النجوم و " يوسف " الهيبة قد برز فقد قميص الكون ".[2]

وبذلك يحقق ابن الجوزي هدفه من موعظته، فقد دعا إلى حسن العبادة وجسد عوامل الغفلة والتراخي، لتخشع القلوب وتذرف العيون عبرات الندم على الذنوب فتخلص في العبادة والطاعة.

ولعله قد تبيَّن لنا من خلال العرض السابق لبعض القضايا الدعوية التي ساقها ابن الجوزي في لطائفه طريقته في تناول تلك القضايا، ورغبته في إيصالها لمن تساق له شديدة الوقع، عظيمة التأثير، محفوفة بطائفة من وسائل الترغيب والترهيب، والتحبيب والتشويق،في سياقات تعبيرية وتصويرية وإيحائية مؤثرة، ولعل هذا مبعث عنايتي بها بحسبانها نمطا من أنماط الأدب الوعظي المؤثر، والذي ينبغي أن يعنى به دارسو الأدب النثري في صوره الراقية الحافلة بمقومات التأثير والإمتاع.

---

١) اللطائف ص ١٠٤

٢) اللطائف ص ١١١

المبحث الثاني

توظيف الموروث الديني

من مظاهر البراعة الأدبية التي كفلت لمواعظ ابن الجوزي في " اللطائف " ذلك التأثير والتشويق والإمتاع . توظيفه للموروث الديني والأدبي بصورة ملفتة للنظر .

وقد تنوعت روافد ذلك الموروث الذي استخدمه ابن الجوزي ببراعة وأضفى من خلاله على تلك المواعظ عذوبة وجاذبية بين موروث ديني أو صوفي أو أدبي متنوع، وبذلك بدت مواعظه قطعا أدبية ممتعة، فيها من النثر الفني سلاسته وعذوبته، ومن الشعر تصويره وموسيقاه، وأتت مكللة بنفائس من التراث العربي الزاخر .

فإا رصدنا ما أبدع ابن الجوزي في استخدامه من ذخائر الموروث الديني تبين لنا من ذلك أن الرجل بحسبانه ضليعا في العلوم الإسلامية وأصول علوم الشريعة والفقه والحديث والتاريخ وغيرها استطاع أن يطرز مواعظه بفيض من تلك المعارف والثقافات التي كان على دراية واسعة بها .

ولعل في موضع الصدارة من ذلك الموروث الإسلامي الذي نهل منه ابن الجوزي في مواعظه . القرآن الكريم بما أتت به آياته من عظات وعبر ، وما ساقته من أمثال، وما أوردته من قصص الأمم السابقة مع أنبيائهم.... إلخ

إذ كان ذلك كله من الينابيع الأولى التي استقى منها ابن الجوزي مواعظه، ولكن لم يكن تناوله للآيات القرآنية في كثير من المواقف من قبيل الاستشهاد والتذكير فقط، بل استوحى منها العبرة، وألمح إلى المغزى !! ها هو ذا يقول في بعض مواعظه:

" جل عن أشباه وأمثال، وتقدس عن أن تضرب له الأمثال، وإنما يقع الاشتباه والأشكال في حق من له أنداد وأشكال. المشبه متلوث بفرث التجسيم، والمعطل نجس بدم الجحود، ونصيب " المحق " من بين دم وفرث لبن خالص "[1]

فعبارته هذه مستوحاة من قوله تعالى: " نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا "[2]

---

١) اللطائف ص ١٥

٢) سورة النحل : ٦٦

وهي تكشف عن إعجاب ابن الجوزي بتعبير الآية الكريمة وجمال تصويرها، وإذا أمعنا النظر اكتشفنا بُعدا آخر، فهو هنا لم يستوح المعنى، فالمراد بالآية الكريمة هو إبراز قدرة الله تعالى في إخراج اللبن الطاهر من بين الفرث والدم، وهو لجميع الناس الصالح منهم والطالح، ولكنه هدف إلى التوظيف الفني للآية من خلال إبرازه للمفارقة التصويرية التي اشتملت عليها، من خلال رؤيتة المتناقضات تعمل في مجال واحد، وقد وظف هذا المعنى في تصويره لثلاثة أنواع من البشر... فهو يهدف إلى توجيه إشارة مهمة من خلال تعبيره " فالمشبه[1] ارتكب ذنبا عظيما فتلوث بالفرث، والمعطل ارتكب ذنبا أقبح فتلوث بالدم، وأما من أحق الحق فله اللبن الخالص " فولدت هذه الصورة شعورا بالمفارقة بين مدلول كل رأي من آراء هؤلاء الثلاثة فأبرز موقف كل منهم من خلال توظيفه للصورة التي استوحاها من الآية الكريمة. وقد يستوحي العاقبة بتوحد المصير والاتجاه، فتتوافق الموعظة مع دلالة الآية الكريمة، مثل قوله:

" خلقتك يوم الفطر طاهرا، ووفرت نصيبك من رش نوري عليك، فأينعت أغصان الإقرار، وهدلت حمائم الوفاق، و تدلت ثمار الو فا، فلما تدنست بالذنوب عطشت أرض الوصال فمالت أغ صان المح بة وقحلت روض المعاملة، ف طاف ع لى ج نة ال عزم طائف الم صارمة (فأصبحت كالصريم)[2] فنكس الآن رأس ا لمذل طول شتاء اله جر، وابعث بريد الأسى ليبعث مزن الحزن لعلها تبكي على قاع الإ فلاس ومسكن المسكنة، فتدب المياه في عروق أغصان اللب فتهتز الع يدان في ربيع الاستدراك "[3]

فقد استوحى أديبنا هذه الصورة من قوله تعالى:

" إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ولا يستثنون فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فأصبحت كالصريم فتنادوا مصبحين أن

---

١)هذه عقيدة السلف فى صفات الله تعالى، وهى اثبات ما أثبته الله لنفسه دون تأويل أو تشبيه أو تعطيل، وكذلك ينفون عنه ما نفاه عن نفسه، وذلك كله فى ضوء قوله تعالى : " ليس كمثله شىء وهو السميع البصير " (الشورى آية ١١)

٢) سورة القلم أية ٢٠

٣) اللطائف ص ٥٦

اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين فانطلقوا وهم يتخافتون ".... إلى قوله تعالى: " قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها إنا إلى ربنا راغبون." (١)

فقد استعار ابن الجوزي في هذا السياق أبعاد التجربة التي مر بها أصحاب الجنة في الآية الكريمة، واستوحى دلالتها التراثية في التعبير عن رؤيته للإنسان المذنب الذي خلق من قبل طاهرا نقيا فلوث سريرته بالمعاصي والذنوب، ثم صرح بالعاقبة وهي " أصبحت كالصريم " لقوة التأثير فيها، ولكنه لم يحجم عن عرض ترغيبه، فاستوحى توبة أهل " الجنة " لتكون خلاصا للمذنبين لاستدراك ما فاتهم.

وهو في توظيفه للآية الكريمة يخرج موعظته من إطار الدلالة التجريدية إلى الدلالة الحسية عن طريق التصوير الحسي المؤثر للهلاك الذي لحق بالجنة، ولم يصرح بالآية الكريمة ليضفي على موعظته لونا أكثر من الشمول لجميع الذنوب، بينما صرح بالعاقبة (فأصبحت كالصريم) لدلالتها على الهلاك، فدلت على توحد الجزاء في كل.

وهكذا كان القرآن الكريم مصدرا ثريا استقى منه ابن الجوزى كثيرا من صوره ومعانيه، وتمكن من توظيفها لتدل بقيمتها الأدبية والتراثية على مدلول موعظته وتكسبها أصالة وقوة تأثير.

۞۞۞

أما السنة النبوية الشريفة فكانت معينا ثرًّا نهل منه ابن الجوزي في " اللطائف "

وقد تخير منها ما يناسب الموعظة التي يسوقها، وكان يكتفي بالإشارة حينا ويفيض ويفصل فى أحيان أخرى. ولنتأمل ما صنعه في الفصل الثاني من " اللطائف " إذ يقول:

" **فعاد طيف الطيف يبعث الراقد: " يأيها المز مل "**(٢) **قم يأط يب ثمار كن، يامحمولا عليه ثقل قل، يامن خلع عليه خلعته " قم فأنذر"**(٣)

---

١) سورة القلم – ١٦-٣٢

٢) سورة المزمل آية ١

٣) سورة المدثر : الآية (٢)

ومن تحركت لتعظيمه السواكن، فحن إليه ا لجذع، وكلمه ا لذئب، وسبح في كفه الحصى، وتزلزل له الجبل، كل كن عن شوقه بلسانه، عجب القوم من علو منزلته، فقالوا بألسنة الحسد (لولا نزل هذا القرآن)[1]، والقدر يقول: ما هذا التعجب من نخلة بسقت والأصل كانوا به(ألم نخلقكم من ماء مهين)[2] مرض القوم داء الحسد فأروه بغير عينيه، فقالوا مجنون، يا محمد !. "[3]

فهذه الإشارات القصيرة التي تخيرها ابن الجوزي من السيرة النبوية الشريفة، ثم رتبها بهذا الترتيب الذي يثير إعجابا بعد إعجاب، فالجذع يحن له، والذئب يكلمه والحصى يسبح في كفه، والجبل يتزلزل له... ثم ينتهى إلى موقف قومه من التكذيب والاتهام له بالجنون، وهو بذلك يصل إلى نتيجة سلبية لم يصرح بها، وهى أن من لا يعقل وهو الجماد والحيوان أدرك الحقيقة واضحة وسلم بها، ومن يعقل وهم الكفار والمشركون فى كل عصر أنكروا وجحدوا.

– فهذا التوظيف للموروث من السنة النبوية المشرفة، بما اشتمل عليه من إشارات دقيقة هو توظيف طردى يتماثل مع حال من ينكر بعثة الرسول الكريم – ﷺ– فكما أنكر الكافرون سابقا ينكر كثير من البشر فى عصور مختلفة مع توافق الحال، وكثرة الدلائل.

وفي سياق آخر من " اللطائف " يقول ابن الجوزي مستقيا من معين السنة النبوية:

" حبال الدنيا خيال تغر الغرّ. انقطعت منذ اتصلت بعزة فرعون الهوى، إذا ألقى موسى الزهد عصى الشهوات، فإذا هى تتلقف، الدنيا سوق فيها ضجيج الشهوات، فإذا اشتغلت بها فمن يسمع ا لمواعظ، نادى بالصالحين أمير نمل التوفيق عند ممر سليمان البلى، كفوا أكف الطباع عن تناول لقم الهوى. " لا يحطمنكم سليمان وجنوده " سبعة يظلهم الله عز وجل فى ظله يوم لا ظل إلا ظله. منهم رجل دعته

---

١) سورة الزخرف الآية ٣١

٢) سورة المرسلات : الآيه ٧٧

٣) اللطائف –ص ١٧–١٨

إمرأة ذات جمال إلى نفسها، فقال: إنى أخاف الله.[1] اسمع يا من أجاب عجوزا شوها لاح للأولياء حب المشتهى فمدوا أيدى التناول، فبان للبصائر خيط الفخ فطاروا إلى مفازة الفوز ولسان حال كل منهم ينادى: "ياليت قومى يعلمون" [2][3]

فإذا عدنا إلى ما جاء في حديث السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله...وجدناهم أصنافا عديدة، ولكن ابن الجوزى يختار صنفا واحدا من هؤلاء ،وهو " رجل دعته إمرأة ذات جمال إلى نفسها فقال إنى أخاف الله " فاتخذ من هذا الرجل رمزا لمن يفر من الدنيا ويبعد عن الشهوات خوفا من الله، وجعل من المرأة رمزا للدنيا بوجهها المزيف المبهرج الذي تغري به العباد ليقعوا فى حبائل الشيطان.

ولكنه يرمز إلى الدنيا بقوله: " إمرأة ذات جمال " بينما رمز إليها بعد ذلك بقوله " عجوزا شوهاء "، فهو يشيرفي الموضع الأول إلى وجه الدنيا المزيف الذى تخدع به بنى البشر، أما الموضع الآخر فهو وجهها الحقيقى الذى يخفى على المخدوعين ولا يظهر إلا للأولياء الذين يفرون من مغرياتها إلى مرابع الفوز والنجاة.

ونلاحظ هنا كذلك أن ابن الجوزي يأخذ من سياق السنة النبوية الشريفة ما يخدم مواعظه، ويتصرف فيما يستوحيه، مضفيا عليه ما يريد ليخرج به من خصوصية الموقف إلى عمومية الدلالة، فهو هنا لا يعبر عن إمرأة واحدة أو رجل واحد وإنما يعبر عن أمة بأسرها فيشيرإلى حال البشر جميعا، ولذلك فإنه يعود فيوجه حديثه إلى من اتبع الغواية، فإذا بالدنيا قد انقلبت إلى عجوز شوهاء كاشفة عن وجهها الحقيقى، ولعل هذا من قبيل التنفير، ليوضح ما نصب له من فخ نجا منه الأولياء (فبان للبصائر خيط الفخ) لينقذوا أنفسهم بتأويل (فطاروا إلى مفازة الفوز) ولسان حال كل منهم ينادى:

---

١) قال الألبانى فى صحيح الجامع (٢٠١/٣) برقم ٣٥٩٧ حديث صحيح رواه مالك والترمزى عن أبى هريرة وأبى سعيد، ورواه أحمد والبخارى ومسلم والنسائى عن أبى هريرة، ورواه مسلم عن أبى هريرة وأبى سعيد معا .

٢) سورة يس الآية ٢٦

٣) اللطائف ص ٦٩

" **ياليت قومى يعلمون** "

– وهكذا كانت الخاتمة التى تشير إلى أن توظيف الحديث قد أدى دوره بامتزاج حديث الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم –مع رؤية ابن الجوزى للدنيا وتقسيمه للبشر بين متبع للدنيا وفار منها ثم يعود فيؤكد هذه الدلالة العامة التي أضفاها على الحديث ويتوصل إلى حقيقة مؤكدة هي فوز الأولياء، ورغبتهم نصح كل إنسان فى كل عصر أن يعلم الحقيقة.

۞۞۞

فإذا انتقلنا إلى تلمس الموروث الصوفي وتوظيفه في المواعظ وجدنا ابن الجوزي عب من ذلك المعين ونهل ؛ إذ كان على صلة وثقى برموز الصوفية، ودراية واسعة بمواجدهم وإشاراتهم، ومن الشائع المعلوم أن ابن الجوزي قد تأثر بأبى حامد الغزالى تأثرا كبيرا، والذى يتأمل مصنفاتهما بشكل عام يلمس تشابها كبيرا بينهما فى المنهج العلمى وطريقة التأليف ونقد المجتمع وسعة العلم وتعدد العلوم والمعارف... وعلى الرغم من ذلك فقد عارض ابن الجوزى طريقة الغزالى فى التصوف. كما تأثر . من جانب آخر . بالحسن البصرى ونقل عنه كثيرا ونجد تشابها قويا بين كل منهما فى الأسلوب الوعظى، فكلاهما واعظ بلغ درجة لا تبارى فى الوعظ بما أوتيا من فصاحة لسان وحسن بيان."[1]

ومن هنا فقد تراءى لنا من خلا ل استقصاء مواعظه فى اللطائف تأثره بالصوفية، حيث انتشرت فى عصره، ولكن لم يمنعه ذلك من توجيه نقده إليهم. فالصوفية " يرون العزوف عن الدنيا وأهلها والانصراف إلى ألوان المجاهدات"[2] فهم يميلون إلى الاعتزال وقد رفض ابن الجوزى ذلك المسلك فكان يخالط الناس ويناقش قضاياهم، ويجلس لوعظهم.

ومن ثم رأيناه ينقد نقدا شديدا لمسلك بعض المتصوفة فى لطائفه من مثل قوله:

---

١) تربية المرأة عند ابن الجوزى – محمد بن عبد الله بن حسين ص ٤٢، ٤٣ بتصرف – ط دار ابن الجوزى – بدون تاريخ

٢) تجارب فى النقد الأدبى التطبيقى من منظور إسلامى – عودة الله منبع القبسى ص ١٥٠ بتصرف – ط ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م

" كان الصوفية قديما يسخرون بالشيطان فصار الآن يسخر بالقوم، كان الزهد فى بواطن القلوب، فصار فى ظواهر الثياب. و يحك صوف قلبك لا جسمك، وأصلح نيتك لا مرقعتك "[١]

ومع ذلك النقد لم تخل مواعظ ابن الجوزي من التأثر بالموروث الصوفي " الذى يجمع بين جمال العبارة وشرف المقصد شعرا ونثرا، فشعرهم من أغنى ضروب الشعر وأرقاها، وهو سلس واضح وإن غمض أحيانا، وفلسفته من أعمق أنواع الفلسفة الإلهية وأدقها، ومعانيه فى نهاية السمو، تقرؤها فتحسب أنك تقرأ معانى رقيقة عارية لا ثوب لها من الألفاظ، خياله رائع يسبح بك فى عالم كله جمال، عواطفه صادقة " يقدس الشعراء فيه الحب. "[٢]

" ونثرهم لا يقل مكانة عن شعرهم سواء كان موعظة أم قصة، فمواعظهم وتعبيراتهم الوجدانية بلغة شعرية، وألفاظ رقيقة عذبة " تتجلى فى نظام من العلاقات وتحمل اللفظة فيها الوجهين الظاهر والباطن."[٣]

– كما تأثر بخيال الصوفية فى قصص الترغيب والترهيب، وهى كثيرة جدا فى كتبهم فى الأمم السابقة وفى الإسلام، وقد أخرجوها فى صورة مثيرة، وخيال يشد انتباه السامعين ويجعلهم فى شوق وطلب المزيد دون كلل أو ملل."[٤]

ومن مواعظه التى ظهر فيها تأثره بالصوفية قوله:

" كان آدم يعقوب البلى، جرى القضاء بزلته فما ذنبه اللقمة، ولكن ظفرتم بالمحبين، فارحموا قدحا أريد انكساره فسلم إلى مرتعش."[٥]

فالموروث الصوفى يظهر جليا في هذا النص فهو يشبه ابتلاء آدم بابتلاء يعقوب، وهذه الصورة تحوى حشدا كبيرا من العلاقات والرؤى، فالصورة الظاهرة

---

١) مرقعتك : المراد ملابسك المرقعة . اللطائف / ١٠٤ .

٢) الأدب الصوفى والإسلامى – د/ عبد الباسط أحمد على حموده – ص ٦٧ ط ١٩٨٠م – دار الرسالة

٣) شعرية النص الصوفى فى الفتوحات المكية – د/ سحر سامى ص ٦٢ – الهيئة العامة للكتاب ط ٢٠٠٥

٤) الأدب الصوفى والإسلامى – د/ عبد الباسط أحمد حمودة – ص ٦٩

٥) اللطائف – ص ٢٢

توحى بأن الشبه بينهما يكمن فى أن كلا منهما قد ابتلى بفقد عزيز عليه، حيث فقد آدم الجنة، وفقد يعقوب ابنه يوسف، ولكن بالنظر إلى الوجه الباطن فى التشبيه ومحاولة الربط بين هذه الرؤية والعلاقات اللاحقة فى الصورة التالية، تظهر رؤية جديدة... فالمقصود هنا هو العقوبة التى لحقت بالذرية، فقد ابتلى آدم وتحملت ذريته عاقبة الأمر، وابتلى يعقوب وتحمل يوسف تبعة الابتلاء، ولذلك فهو يرمز " باللقمة " هنا إلى ذرية آدم عليه السلام، ويرمز بقوله " ارحموا قدحا أريد انكساره فسلم إلى مرتعش " أى حافظوا على البقية الباقية من نعم الله التى وهبها لبنى آدم، والمرتعش هنا هم بنو آدم الذين أغفلوا ما وهبهم الله من نعم، ولولا قلة من المحبين العابدين لحلت النقمة بالعباد.

– كما تظهر إضاءات من الموروث الصوفى فيما أورده من شعر فى لطائفه حيث عقيدة الصوفية فى التصاقهم بالذات الإلهية، وتغزلهم فيها، واتخاذهم رموزا ودلالات غير معتاده للغة كألفاظ " الحب والصبابة والغرام والعشق والشوق والهيام والأسى والجوى والقلى، والشجو والحزن والضنى، وما يتصل بهذا كله من أسماء المعشوقات، كليلى وبثينة وسلمى " [١]، ولنتأمل قوله:

" كان حسان بن أبى سنان يخادع امرأته حتى تنام ثم يخرج عن الفراش إلى الصلاة ".

جرى حبه مجرى دمى فى مفاصلى فأصبح لى عن كل شغل به شغل
كأن سهاد الليل يعـــشق مقلتى فبينهما فى كل هجر لنا وصل[٢]

– ففى إطار وصفه لليل العابدين.. استدعى موقف حسان مع زوجه وإغفاله لها حتى تنام ليختلى برب العباد فى ليله، ولكن هذا الموقف مجردا لم يكشف عن عاطفة هذا العابد تجاه خالقه، فكان تعقيبه بهذه الأبيات التى تنم عن عاطفة فياضة، ومكاشفة بالحب للذات الإلهية.. مجاراة للشعر الصوفى، حيث أن " الصوفية تؤمن بأن الطريق إلى الله ليس بالعقل وإنما بالقلب، ليست العبادات وحدها خوفا وطمعا، وإنما حبا فى الله. " [٣]

– وقد استدعى ابن الجوزى بعض مواقف الصوفية التى رويت عنهم فقال:

---

١) الأدب الصوفى والإسلامى – د/ عبد الباسط أحمد حمودة – ص ٦٩
٢) اللطائف ص ٣١
٣)تجارب فى النقد الأدبى التطبيقى من منظور إسلامى – عودة الله منيع القبسى ص ١٤٩

" لا راحة للمحب فى الدنيا، إن أحس بالحجاب بكى على البعد، وإن فتح باب الوصل خاف الطرد

فيبكى إن نأوا شوقا إليهم ويبكى إن دنوا خوف الفراق

من لم يذق لم يعرف.

من لم يبت والحب حشو فؤاده لم يدر كيف تفتت الأكباد

الفراق أظلم من الليل، والوجد أحر من الجمر، ففي فؤاد المحب نار جوى، أحر نار الجحيم أبردها. اشتد قلق الخوف بإبراهيم بن أدهم[1] فصاح:

" إلهى إن كنت أعطيت أحدا من المحبين ما يسكن به قلبه قبل لقائك، فأعطنى، فقد ضربى القلق فرأى الحق فى منامه وهو يقول: ياإبراهيم ! أما استحييت منى، تسألنى أن أعطيك ما يسكن به قلبك قبل لقائى، وهل يسكن قلب المشوق إلى غير حبيبه." [2]

– فعبر عن هذه العلاقة الوجدانية بين المحب وهو العابد والمحبوب وهو الله، وعن الاضطراب والخوف الذى يغشى العابد خوفا ووجلا من رب العزة سبحانه وتعالى، فلا يشعر بسكون ولا راحة فى دنياه، فكان هذا الموقف للصوفى إبراهيم ابن أدهم مجسدا لقلق العارفين الذين لايشعرون براحة في الدنيا خوفا من السابقة، وحذرا من الخاتمة، فأخرجهم القلق إلى طريق محفوف بالخوف والألم.

وهكذا كان توظيفه للموروث الصوفي، توظيفا حيويا مؤثرا، مناسبا لما اختير له متضامنا مع رؤيته المعتدلة للحياة والعبادة والعلاقة بالله تعالى في إطار من الموعظة الحسنة.

* * *

---

١) إبراهيم بن أدهم بن منصور التميمى البلخى زاهد مشهور كان أبوه من أهل الغنى ببلخ، فتفقه ورحل إلى بغداد وجال فى العراق والشام والحجاز، واشترك مع الغزاة فى قتال الروم، وكان يعيش من العمل بالحصاد وحفظ البساتين والحمل والطحن اللطائف ص ٥٣

٢) اللطائف ص ٤٤/٤٥

المبحث الثالث

مداخل التأثير والتشويق

لا مراء في أن الوعظ رسالة دعوية، ووسيلة من وسائل التحبيب في العمل الصالح والهدى والرشاد، والواعظ يدرك أنه مبلغ، ولذلك فإنه يلتمس فى مواعظه وسائل التأثير والتشويق النابعة من إحساس عميق بمسئوليته تجاه الأمة، وحرصه على دينه.

وقد التمس الوعاظ قديما وحديثا كثيرا من مداخل التأثير والتشويق لجمهورهم، ولكن تميز كل منهم بأدائه الخاص، ورؤيته الإبداعية التى تضفى على أعماله تميزاً، ومن هنا كان الإقبال على بعض الوعاظ ؛ لما وهبهم الله من موهبة وحسن بيان يلتمسون بها أسباب القبول والتأثير، والانصراف عمن لا يتمتعون بتلك الميزات والقدرات.

وقد تنوعت مداخل التأثير والتشويق عند ابن الجوزى، واختلفت باختلاف مواعظه، فلم تكن له وتيرة واحدة فى إبداعه، بل كان لكل مقام مقال يراعى فيه أحوال السامعين، فكان يصول ويجول، ويهدأ ويثور مجسدا مشاعره المفعمة بالخوف والقلق فى كلماته المؤثرة التى تتساقط لها دموع السامعين غزارا فيحقق هدفه وغايته من الإقناع والإمتاع. ومن تلك الوسائل التشويقية إيراد الأشعار المعبرة، والقصص المؤثر، والأمثال السائرة. وأعرض في هذا المبحث مقتطفات من توظيفه لهذه الموروثات الأدبية في هذا المبحث.

أولا: الشعر:

للشعر تأثير فى النفوس، فهو أكثر إثارة للعاطفة ؛ إذ تميل إليه القلوب، وترتاح الأفئدة، بحسبانه ذروة الفنون القولية لما اجتمع فيه من مؤثرات نفسية تشجو لها الأسماع من موسيقى وصور وإيحاءات وأشياء أخرى قد لا تدركها العقول، فهى تقع موقعا عذبا دون إدراك لكيفيتها كما قال ابن طبا طبا: " للأشعار الحسنة على اختلافها مواقع لطيفة لا نجد كيفيتها كمواقع الطعوم المركبة الخفية اللذيذة المذاق، وكالأراييج الفائحة المختلفة الطيب والنسيم، وكالنقوش الملونة التقاسيم والأصباغ، وكالإيقاع المطرب المختلف التأليف."

وقالت عائشة رضى الله عنها: " علموا أولادكم الشعر تعذب ألسنتهم "، والشعر عند العرب ترتاح له القلوب، وتجزل له النفوس، وتصغى إليه الأسماع، وتشحذ به الأذهان، وتحفظ به الآثار، وتقيد به الأخبار.... وقد بلغ من كلف العرب به

وتفضيلها له أن عمدت إلى سبع قصائد تخيرتها من الشعر القديم، فكتبتها بماء الذهب فى القباطى المدرجة، وعلقتها بين أستار الكعبة.

ولذا كان الشعر عند القدماء بمثابة الأزهار التى زينت بها حدائق الأخبار، وهو عندهم عذوبة اللسان وارتياح القلوب، ومعلى هامات القبائل. (١).

وقد فطن ابن الجوزي إلى قوة تأثير الشعر في جمهور السامعين، فعمد إلى إدراجه فيما يسوقه من مواعظ تتضمن تحذيرا تارة وخبرا تارة أخرى وقد يضمنه ثنايا قصصه.

ومن المواقف التي قصها ابن جبير في رحلته (ودخوله بغداد سنة ٥٨٠ هـ)والتي تدل على تأثير ما ينشد من أشعار على سامعيه.. حيث يثير به النفوس، ويرغب به القلوب، فكان مما قال:

"... وقعدنا إلى أن وصل هذا الحبر المتكلم، فصعد المنبر وأزاح طيلسانه عن رأسه متواضعا لحرمة المكان. وقد تسطر قراء القرآن أمامه على كراسي موضوعة، فابتدروا القراءة على الترتيب، فشوقوا ما شاؤا، وأطربوا ما أرادوا، وبادرت العيون بإرسال الدموع، فلما فرغوا من القراءة وقد أحصينا لهم تسع آيات من سور مختلفات، صدع ابن الجوزي إذ ذاك بخطبته الزهراء، وأتى بأوائل الآيات في أثنائها منتظمات، ومشى الخطبة على فقرة آخر آية منها في الترتيب إلى أن كملها،وكانت الآية (الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا إن الله لذو فضل على الناس) (٢)... وأبدت النفوس سر شوقها المكنون، وتطارح الناس عليه بذنوبهم معترفين، وبالتوبة معلنين، وطاشت الألباب والعقول، وكثر الوله والذهول. قال: ثم فى أثناء مجلسه كان ينشد أشعارا من النسيب مبرحة التشويق بديعة التدقيق، تشعل القلوب وجدا، ويعود موضعها الغزلي زهدا، فمن ذلك ما أنشده:

يا فؤادي أذابه الـــــوجد	وأين قلبي فما صحا بعد ؟
يا سعد زدني جوي بذكرهم	بالله زدني فديت يا سعد !

١) التوظيف الفنى للشعر فى القصة العربية القديمة – أبو زيد بيومى تقديم أ – د مصطفى رجب – ص ٣٠ ط الأولى – العلم والإيمان –بدون تاريخ

٢) سورة غافر – الآية ٦١

– ولم يزل يردد هذه الأبيات، والانفعال قد أثر فيه، والمدامع تكاد تمنع خروج الكلام من فيه، إلى أن خاف الإفحام، فابتدر القيام، ونزل عن المنبر عجلا وقد أطار القلوب وجلاً، وترك الناس على أحر من الجمر يشيعونه بالمدامع الحمر، فمن معلن بالانتحاب، ومن متعفر بالتراب، قال وما كنا نحسب أن متكلما في الدنيا يعطى من ملك النفوس والتلاعب فيها ما أعطى هذا الرجل."[1]

فهذا الخبر يظهر بوضوح اعتداد ابن الجوزي بالشعر، وادراكه لأثره في نفوس سامعيه، بدليل تكراره للأبيات السابق ذكرها.

وإذا استقصينا اللطائف وجدناها زاخرة بالعديد من الأبيات الشعرية ذات الإيقاع المؤثر، والمعاني الجياشة، فمزجها بنثره، وقد عمد بها إلى الوعظ المباشر تارة وإلى الإيحاء تارة أخرى، بل وتعددت ضروب التأثير بالإضافة إلى ذلك، باختلاف المواقف، ولننظر إلى قوله واصفا ليل العابدين، وما يعتريهم من شوق ووجد إذ يقول:

" رياح الأسحار أقوات الأرواح، رقت فراقت حر الو جد، وبل غت رسائل الحب:

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد لقد زادني مسراك وجدا على وجد

مكروب الوجد يرتاح إلى النسيم، وإن قلقل الواجد:

بين شمال وصبا حن مشوق وصبا

فلم تزده نغما ت الشوق إلا وصبا[2]

ع بارة الن سيم لا يفهم ها إلا الم شتاق، و حديث ا لبروق لا يروق إلا للعشاق!!

ومرنح فطن النسم بوجده فروى له خبر العذيب معرضا

خلوا بالحبيب في دار المناجاة فكساهم ثياب المواصلة، وضمخهم بطيب المعاملة وغالية السحرغالية، يصبحون وعليهم سيما القرب

* تفوح أرواح نجد في ثيابهم *

---

١)المدهش – لأبي الفرج جمال الدين بن علي الجوزي – المقدمه (ج) – ط دار الجيل – ١٩٧٧

٢) وصبا : الوصب : الوجع والمرض، – والتعب والفتور في البدن المعجم الوسيط .

فتأسف ياجيفة النوم !! وابك يا عريان الغفلة !! أتدري كيف مر عليهم الليل ؟ ألك علمٌ بما جرى للقوم ؟

* أيعلم خال ما جرى للمتيم *."[1]

وهنا نلحظ أن الشعر قد أدى دورا مهما في إبراز العاطفة المسيطرة على العابد، من خلال المزاوجة بين موقفين هما موقف العابد وموقف العاشق، فالأول دفعه حبه لربه إلى عبادة الليل والتلذذ بنسيم الأسحار حيث يناجي رب العباد، أما الموقف الثاني فقد استوحاه من موقف العاشق الذي يسهر الليل يناجي محبوبته فإذا ما أتت رياح نجد حملت إليه ذكراها فازداد شوقا !! ومن ثم استعار ابن الجوزي موقف العاشق عن طريق الرمز الموحي بدلالة الإخلاص والتوله في كل، وما يترتب على ذلك من نفوذ إلى المرموز إليه وهو عشق الذات الإلهية من خلال تجريد الموقف من دلالته الحقيقية إلى دلالة أخرى أكثر شمولا ورحابة، فلم تقف عند ذات العاشق، بل امتدت لتشمل جنس العابدين في دار المناجاة ولا يخفى ما ذلك من إثارة لنفوس السامعين، وتحريك لقلوبهم، حيث حديث العشق وإدراجه في الموعظة وما يترتب عليه من إثارة للانتباه ويقظة يعقبها شوق ثم تفكر أثار تساؤلاً عن كنه هذه العبارة، ومدى تلذذ العابد، وهذا هو ما أراده من خلال مزجه لهذه الأبيات بالموعظة السابقة ولذلك عقب بالإجابة حيث قال: " عبادة النسيم لا يفهمها إلا المشتاق، وحديث البروق لا يروق إلا للعشاق " فخرج من عمومية التعبير إلى خصوصية الرؤية... وهذا مما يدفع السامع إلى مزيد من الإقبال والإثارة.

ولنتأمل قوله مشمولا بالعتاب وتوجيه اللوم للمذنب الذي اتبع الشهوات وهجر ذكر الله، متبعا خطوات إبليس، يقول:

" فيا أيها المذنب: إذا أشكل عليك أمر فاليفصح لك دمعك !!

إذا أعجمت أ طلال هند على البلى فدمعك في بث الغرام فصيح

فصح يا مطلقا في وصالنا راجع !! يا حالفا على هجرنا كفَّر !! إ نما أبعدنا إبليس لأنه لم يسجد لك، فواعجبا كيف صالحته وهاجرتنا ؟!!. ويحك لك عندنا من القدر، مالا تعرفه لليلة القدر !!:

رعا الله من أهوى وإن كان مارعى حفظنا له العهد القديم وضيعا

---

١)اللطائف – ص ٣٠، ٣١

وصالحت قوما كنت أنهاك عنهم وحقك ما أبقيت للصلح موضعا.[1]

وفي هذا النموذج الذي اخترناه من اللطائف نلاحظ التوافق الطردي بين دلالة الموعظة والأبيات الشعرية، فمدلول الموعظة توجيه العتاب إلى من هجر العبادة واتبع عدو الله وعدوه إبليس، فهذه الدلالة الطردية إنما هي تجسيد للعتاب الموجه إلى المذنبين في محاولة ليتقدم بهم خطوة إلى طريق الصلاح وهو التوبة.. ولعله في هذه الموعظة لم يلجأ إلى الترهيب المباشر كعادته في التعامل مع المذنب... بل لجأ إلى تهدئة النفوس وتهيئتها لقبول العظة من خلال هذه الأبيات التي مع ما تحمله من عتاب مدعم بإيلام نفسي، فهي تمثل وسيلة لرؤية الإنسان لنفسه من خلال استحضار النموذج أو المثال وتمثل الذنب مجسدا في الآخرين.

وكثيرا ما كان ابن الجوزي يعمد إلى الإيحاء بالشعر في أخباره التي يسوقها خلال مواعظه على دروب الصوفية في تغزلهم بالذات الإلهية من ذلك قوله:

" لاحت أوصاف الصانع في جمال الكمال، فأشربت قلوبهم حبه فصاح غلاء الثمن:

* بدم المحب يباع وصلهم * !!

فأجاب عزم المحب:

* وما غلت نظرة منكم بسفك دمي *

قلَّبهم الحب في قفر الفقر على أكف البلى فقطَّع أوداج [2] الأغراض بسكين المسكنة والمحبوب يقول: (أتصبرون) والأرواح تجيب: (لا ضير).

شغلت نفسي وقلبي في مودتكم لا خلص الله روحي من محبتكم
ها قد غضبت على نفسي لأجلكم حتى جفوت حياتي بعد جفوتكم
إذا تلهب جمر الشوق في كبدي أطفاه ماء التلاقي يوم رؤيتكم

– غاب القوم عن وجودهم شغلا بموجدهم. [3]

فهذه الموعظة التي عرضها حول الزهد، واشتغال المؤمنين بحب الله دون ملذات الدنيا وشهواتها وقد جسد هذه المحبة وهذا التبتل والزهد في الدنيا من خلال

---

١)اللطائف ص ٦٨

٢) أوداج : هي عروق تكتنف الحلقوم، وقيل ما أحاط بالحلق من العروق، وقيل هي عروق في أصل الأذنين يخرج منها الدم .

٣) اللطائف – ص ٧٤

صور متتابعة نثرها عبر موعظته بطريقة مؤثرة شاعرية الإبداع،يكتنفها الرمز، فكان تعقيبه على موعظته بأبيات شعرية يكتنفها الوضوح على سبيل التأكيد، مدعمة بمعاني الحب المرموز به إلى حب الله.

ويتراءى لي أنه في مجال تعقيبه على مواعظه بهذه النصوص الشعرية إنما استوحى المعاني التي لهج بها أهل الزهد والتصوف وهي معاني الحب، فالحب عندهم عبارة عن ميل الطبع إلى الشيء الملذ فإن تأكد ذلك النيل سمي عشقا...، وعندهم أن حب الإنسان لنفسه أولا أو لأقرانه أو للعالم كل ذلك يصلح أن يكون طريقا إلى حب الله [1]، ومن هذا المنطلق كانت الأبيات الشعرية التي تحمل دلالة الغزل والتشبيب والنسيب وغيرها إنما هو رمز للحب الإلهي وتأكيد له.

– وفي إطار استرفاده للشعر في مواعظه كوسيلة من وسائل التأثير، تتراءى لنا قدرته على إدراج الشعر كوسيلة للإقناع وقد يتساءل البعض فيقول: هل عدم ابن الجوزي من فنون القول ما يبرهن به على أخباره ومواعظه فلجأ للشعر... ؟

أقول لم يعدم ابن الجوزي من الفنون النثرية المختلفة ما يقنع به السامع، ولكن ألف في الشعر ألواناً من التأثير والإقناع النفسي تفتقدها فنون القول الأخرى.

وكما قال بعض نقادنا عن الشعر: " هو ضرب من ضروب السحر تتأثر به الحواس أولا، ثم ينتقل التأثير إلى الجهاز العصبي، فيهدىء ما قد يكون من اضطرابات ويساعد اختلاجات النفس المعلقة على الاستقرار "[2]

ومن المواعظ التي اتفق لها هذا التوظيف قوله:

" كانت الملائكة تدعو على العصاة قبل هاروت وماروت (٣)، فلما جرت قصتهم صاروا " يُسَبِّحُون بحمد ربهم، ويستغفرون لمن في الأرض ". كما كان داود يقول لا تغفر للخطائين فلما زل عرف.

---

١) تأثير الفكر الديني في البلاغة العربية – د / مهدي صالح السامرائي – ص ٢٢٢ –جامعة بغداد –ط ١٣٩٧ هـ–١٩٧٧ م

٢) التوظيف الفني للشعر في القصص العربية القديمة – أبو زيد بيومي – ص ٣١

٣) قصة الملكين هاروت وماروت أوردهما ابن الجوزي في كتاب (زاد المسير) (١/١٢٣/١٢٤/١٢٥/) وظاهر سياق القرآن إجمال القصة من غير بسط ولا إطناب

وعذلت أهل العشق حتى ذقته فعجبت كيف يموت من لا يعشق
وعذرتهم وعرفت ذنبي أنني عيرتهم، فلقيت فيهم ما لقوا "[1]

– فالمجال هنا مجال تعليل وإقناع بالبرهان، ورغم اختلاف العلائق في كل إلا أن مجال التوجيه واحد وهو أن الإنسان قد يجهل عذر الآخرين حتى يمر بنفس محنتهم فيدرك ما أخطأ فيه ويلتمس لهم أعذارا، فتستقر نفسه إلى هذا الإدراك.

ولم تخل مواعظ ابن الجوزي من قصص متعددة، ومواقف من قصص أخرى وقد أدرك أن القصص هي تعبير عن أحداث متلاحقة بأسلوب نثري.. وقد تطرأ لقطات فنية مكللة بالمشاعر والعواطف فتعجز الكلمات المنثورة عن ملاحقة فيض المشاعر الإنسانية، فيلجأ إلى الشعر فيدمجه بقصته فلا يشعر القارىء بانفصال بين نثره وشعره كما في قوله في قصة سلمان الفارسي:

" **فبينما هو يكابد ساعات الانتظار جاء البشير بقدوم الرسول وسلمان في رأس نخلة، فكاد القلق يلقه لولا أن الحزم أمسكه كما جرى يوم " إن كادت لتبدي به "** [2] **ثم عجل النزول ليلقي ركب البشارة !! وأي ثبات بقي ليعقوب في حال " إني لأجد "؟!!**[3]

خليلي من نجد قفابي على الربا فقد هب من تلك الرسوم نسيم

فصاح به المالك: مالك وهذا ؟ انصرف إلى شغلك. كيف انصرافي ولي في داركم شغل، ثم أخذ يضربه، فأخذ لسان حال المشوق يترنم لو سمع الأطروش:

خليلي لا والله ما أنا منكما إذا عَلَمٌ من آل ليلي بدا ليا

فلما لقي الرسول عارض نسخة الرهبان بكلام الأصل، فوافق " [4]

فيها، فنحن نؤمن بما ورد في القرآن على ما أراده الله تعالى " وقال القاضي عياض إن هذه الأخبار من كتب اليهود وافترائهم كما نصه الله تعالى أول الآيات .

١)اللطائف / ٦٠

٢) صورة القصص –آية ١٠

٣) صورة يوسف آية ٩٤

٤) اللطائف ص ٢٩

فهذا الموقف يعالج لحظات من التوتر والقلق بأنفاس لاهثة تترقب مجيء الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم – فهو يكابد لحظات الانتظار، إلى أن جاء البشير، واقتربت اللحظة الفاصلة التي طالما تشوق لها فهي لحظة مشحونة بالاضطراب يشوبها انفعال ناتج عن تعطش داخلي لرؤية الرسول الكريم –صلى الله عليه وسلم – فكان قوله:

خليلي من نجد قفا بي على الربا فقد هب من تلك الرسوم نسيم

تجسيداً لصورة هذا الانفعال والشوق الذي اعترى سلمان، ولسان حاله يقول:

خليلي لا والله ما أنا منكما إذا علم من آل ليلي بدا ليا

تمهيد إلى الانتقال للحظة الانفصال عن عالم الاضطراب العقائدى الذي عاشه سلمان بين اليهود والنصارى، عندما رأى الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم – وتأمل علامات النبوة فكانت لحظة الاستقرار.

ولنتأمل هذا الحوار الذى دار بين ذى البجادين وعمه عندما اعترض طريق إسلامه، فقال فى مجال عرض القصة: **" فقال: ياعم قد كنت أنت نظر سلامتك، وما أرى زمن زمنك ينشط. فقال: والله لئن أسلمت لأنزعن كل ما أعطيتك، فصاح لسان عزمه: نظرة من محمد عليه الصلاة والسلام أحب إلى من الدنيا وما فيها.هذا مذهب المحبين إجماعا من غير خلاف.**

ولو قيل للمجنون: ليلى ووصلها تريد أم الدنيا وما في طواياها ؟

لقال تراب من غبار ديارها أحب إلى نفسي وأشفى لرؤياها (١)

فهذه اللحظة الآنية التي كشف فيها عبد الله ذو البجادين عن حبه للرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم – لحظة تعبر عن ردود انفعالية إيجابية، تكشف عن تمسكه بحب الرسول – صلى الله عليه وسلم – وزهده في متاع الدنيا وشهواتها، وكان من المفترض أن يواصل سرد القصة دون التعليق الذي أتى به وهو " هذا مذهب المحبين إجماعا من غير خلاف " لأن في هذا إخلالا بالتواصل وإفسادا لمتعة الاستماع، وكأنه أراد أن يهب المستمع تمهيداً لما سيقوله من شعر يؤكد به هذه الحقيقة، ولكن كان بإمكانه التواصل دون إخلال.

---

١) اللطائف ص ٤٦

– وقد أدرك ابن الجوزي أن لغة الشعر أوقع في النفس وأقدر على تصوير هذه اللقطة الانفعالية المفعمة بالعاطفة، فكان هذا النص الشعري، هو تجسيد لصورة التوله والحب الموجه إلى شخص الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم–

وهكذا فإنه ساق الشعر فى إطار الموعظة ليضفى عليها حيوية، وليخرج بها من إطار الجمود إلى رونق الحركة المكللة بالصورة والموسيقى والانفعال العاطفى، فيضفى عليها إثارة وقبولا من المستمعين.

❁❁❁

ثانيا: القصة:

تعد القصة من أكثر الفنون الأدبية جذبا لجمهور المستمعين " لما تملكة من إمكانات هائلة فى التأثير والتوجيه غير المباشر، ولما تتمتع به من عناصر التشويق والصراع والإثارة. ومما لا شك فيه أن القصص الإسلامى من أشرف أنواع القصص ؛ لأنها تصور القيم الدينية والأخلاقية تصويرا فنيا ساميا يسهم فى رقى الشعوب وتقدمها، ويعمق الإحساس بالمثل العليا والقيم النبيلة." (١)

وقد سار ابن الجوزى على نهج سلفه من الوعاظ، حيث اتخذوا من القصة وسيلة للعظة والعبرة، واستقوا من قصص الأنبياء وآثار السلف الصالح وعامة الأمة موردا يسوقونه فى مواعظهم، ليؤلفوا به القلوب ويأسروا العقول ويجذبوا الأسماع.

ومما يدل على تميز القصة كفن أدبى فى مجال عرض العظة والعبرة، أن القرآن الكريم وهو كتاب الله العزيز اشتمل على أكثر من ألف وخمسمائة آية كريمة دارت حول القصص، وهذا مما يدلل على أهميتها كوسيلة جذب وتأثير.

ولإدراكه هذه القيمة الأدبية والنفسية للقصة، نثرها فى " لطائفه " نثرا، فما من موعظة تخلو من قصة أو موقف، ولكن نثره لها لم يكن عبثا بل كان عن إدراك واختيار دقيق لما يوافق الموعظة ويشحذها بطاقة إبداعية أخرجها من مجال الوعظ المباشر إلى الإيحاء به.

وقد تنوعت قصصه بين قصص استقاها من القرآن الكريم وبين قصص استوحاها من آثار السلف الصالح من الصحابة والتابعين والصالحين، وبعض

---

١) الأدب الإسلامى بين الأصالة والمعاصرة – د/ عبد الجواد محمد المحص ص ٩٧

الصوفية، ومن القصص التى استقاها من القرآن الكريم، قصة آدم عليه السلام، وقصة موسى وداود وسليمان عليهم السلام.

– ونلاحظ فى عرضه لقصصه، واختياره لها أنه يكتفى " بموضع العبرة والعظة من تلك القصص، وكأنه اكتفى بلقطة واحدة من أحداثها، هدف من ورائها التأثير فى متلقيه بمغزاها التربوى الأخلاقى، والترويح عنه بمثل هذه الحكايات أو القصص، والتنويع فى مادته العلمية، قصدا لدفع السآمة والملل عن مخاطبيه. " (١)

ففي قصة آدم عليه السلام وفى إطار توضيح ابن الجوزي " لعقوبة الذنب " نجده يختار من القصة المشاهد التى تبدأ منذ طرد آدم من الجنة حتى إعلان توبته، مضيفا إلى القصة القرآنية بعض المشاهد التى استقاها من كتب الوعاظ كالحسن البصرى وأحمد بن حنبل وغيرهم، وكأنه يريد أن يتعرض فقط للمواقف التى واجه فيها آدم العقوبة على ذنبه.

وعندما استوحى القصة من القرآن فإنه لم يلتزم بطريقة عرض القرآن لها، ولكنه التقط التوجيه الذى تحمله تلك القصص. ونراه يقدم الموعظة والنتيجة المترتبة على القصة قبل بدايتها، من قبيل الجذب والتشويق للمتلقي يقول:

" إياك والذنوب، فإنها أذلت أباك بعد عز (اسجدوا) وأخرجته من إقطاع (اسكن) " (٢)

ولذلك فإنه يبدأ القصة من نهايتها مازجا بين أسلوبه وطريقة عرضه وبين آيات القرآن الكريم. ثم ينتقل إلى أحداث القصة مدعما لها بمقدمة توحى بالمضمون كقوله "**أعظم الظلمة ما تقدمها ضوء، وأصعب الهجر ما سبقه وصل، وأشد عذاب المحب تذكاره وقت القرب.**" (٣)

وتبدأ الأحداث من حيث خرج آدم من الجنة يقول:

---

١) مواعظ ابن الجوزى – د/ عرفه حلمى عباس – ص ٢٩١ – ط ٢٠٠٨

٢) اللطائف ص ٢٠

٣) المصدر السابق ص ٢٠

" كان حين إخراجه لا تمشى قدمه والعجب كيف خطا !! واعجبا لجبريل بالأمس يسجد له، واليوم يجر بناصيته !! وا لمدنف يقول: ارفق بى!! " (١)

ثم يتابع كاشفا عن لوعة آدم وتحرقه جراء عصيانه لربه فيقول:

" أخذت صعداء آدم من ذكر " وعصى " تحرقه لولا أنه تدارك الحريق بمياه " فتاب عليه "... كان عند رؤية الأملاك يذكر إقطاعه الأملاك، فيكاد مما يأسى يجعل الرجاء يأسا " (٢)

وهنا نلحظ امتزاج القصة بالموعظة، فلا يشعر المتلقى بانفصال بين إطار الوعظ والقص، حتى صارت القصة هى ذات الموعظة، والموعظة هى ذات القصة، وبذلك تكون أوقع تأثيرا فى نفس المتلقى.

وقد يورد واعظنا ابن الجوزي القصة متفرقة على مشاهد متعددة فى لطائفه، ومن القصص التى أوردها متفرقة من آثار الصالحين، قصة " إبراهيم بن أدهم " أحد العباد الزهاد وهو يشير إلى قصته من أكثر من زاوية،، يوظف كل رؤية لها بما يتوافق طرديا مع موعظته، فهو حين يدعو إلى اعتزال الهوى يذكر بداية قصته مع الزهد والاعتزال فيقول:

" ركب إبراهيم يوما للصيد، وقد نصب له فخ " يهديهم ربهم " (٣) **فصيد قبل أن يصيد، غير ترجمان الزواجر عن لغة " سبقت لهم " فقال: ما لهذا خلقت ولا بهذا أمرت، وافق الطبيب وقت انقضاض المرض، فسقاه دواء مفردا، فنفض به قولنج الهوى، رماه بهم مواعظ، ألقته عن قربوسه** (٤) **بؤسه. لاحت نار الهدى، فصاح فى جنود الهوى:" إنى آنست نارا "** (٥)**، فتجلى له أنيس (تجدني) فاستحضره، فغاب عن وجوده، فلما أفاق من صعقة وجده، وقد دك طور نفسه، صاح لسان الإنابة بعبارة " تبت إليك " فلما خرج عن ديار الغفلة، أومأت اليقظة**

---

١) المصدر السابق ص ٢٠

٢) المصدر السابق ص٢١

٣) سورة يونس الآيه ٩

٤) قربوسه : القربوس : حنو السرج

٥) سورة طه : الآية ١٠

إلى الهوى: يا ابن أدهم لوعدت إلى قصرك، فتعبدت فيه، قال العزم: كلا ليس للمبتوتة [1] نفقة ولا سكنى." [2]

لقد اختار صاحب اللطائف هذا المشهد لمشاكلته للإطار الذى وضع فيه، فالموعظة تدعو إلى اعتزال اللهو والهوى وإلى الزهد فى الدنيا، وهذه الرؤية الإبداعية التى سيق من خلالها هذا المشهد تكشف عن توبة إبراهيم بن أدهم واعتزاله للدنيا وشهواتها، فكانت شخصية إبراهيم نموذجا من النماذج التي يدعو ابن الجوزي مريديه لاتباعها، وكان عرضه لهذه القصة من خلال هذه الزاوية إنما هو تكثيف لتأثير الموعظة، وقد دعم هذا التأثير من خلال مزجها بآيات كريمة مستقاة من قصة موسى عليه السلام، فكانت أكثر إثارة وقبولا.

وقد عرض مشاهد أخرى ومواقف لإبراهيم ابن أدهم من خلال مواعظه، فهو حين يدعو إلى (إخلاص النية والبعد عن الرياء) يستلهم أحد مواقف ابن أدهم في إطار موعظته فيقول:

" كان إبراهيم ابن أدهم إذا مرض يجعل عند رأسه ما يأكله الأصحاء كيلا يتشبه بالشاكين !! " [3]

وهكذا نلاحظ أنه اختار من مشاهد القصة ما يتوافق مع مضمون موعظته وما يدعو إليها، فيعرضها كبنية متكاملة دون حشو أو إخلال، وهذا ما يدفع المتلقي إلى الاستجابة النفسية من خلال تجسيد الموعظة عبر موقف أو شخصية.

ولم يكتف ابن الجوزي بقصص القرآن وقصص الصحابة وآثار السلف الصالحين، بل أورد قصصاً قصيرة ومشاهد مختلفة لشخصيات لم يذكر اسمها بل تركها مبهمة وقد تكون مجهولة الهوية بالنسبة له، أو أنه عمد إلى ذلك لأن ذكر الاسم قد لا يؤثر في مضمونها أو يعمق تأثيرها لكون الشخصية غير معروفة، ومن ذلك قوله:

---

١) للمبتوته : أى للمطلقة طلاقا لا رجعة فيه .

٢) اللطائف ص ١٣٢/١٣١

٣) اللطائف ص ٥٣

"إذا وقعت المعرفة في القلب سهل البلاء، فإن مازجتها المحبة فلا أثر للبلاء، لأن المحب سيتلذذ إذا أذي. مروا على مجذوم قد قطعه الجذام، فقالوا: لو تداويت فقال: لو قطعني إربا ما ازددت له إلا حبا."[1]

– فهذا المشهد شاهد حي على صدق موعظته، أكسبها قوة تأثير وإثارة، فحب الله والتعلق به يمحو أثر البلاء من النفس، والجذام بلاء أعاذنا الله منه، ولكن تعلق هذا الرجل بالله جعله يستعذب الألم في سبيل الله، ومحا من نفسه أي أثر له، بل زاده حبا في الله، فوافق هذا الموقف الموعظة، ولم يقلل من أثرها عدم ذكر " الاسم" فالضوء قد ألقي على طبيعة الحدث وأثره، وليس على كنه الشخصية.

وهكذا كان لابن الجوزي رؤيته المتميزة في اختيار قصصه ومشاهدها التي ضمنها مواعظه بحيث يكمل كل منهما الآخر، ومن خلال استدعاء المواقف ذات التأثير الإيجابي على السامع، والتي تدعم الموعظة من خلال القيام بدورها في إقناع وإمتاع السامعين.

ثالثا: الأمثال:

ومن الذخائر الأدبية الذائعة التي استقى منها ابن الجوزي ما يضفي على عظاته تأثيرا وتشويقا الأمثال القديمة، ومن المعلوم المتقرر أن للأمثال " قيمة أدبية وفكرية بل إن قدرا كبيرا من الأمثال القديمة يعبر عن تجربة نفسية عميقة، ولا يختلف عن التجارب الأدبية الأخرى إلا في الصورة اللفظية المؤدية له،... فهو نابع عن تأثر قائله بموضوعه، وتفاعل فكرته في وجدانه ومعاناته لقضيته، ثم صياغة هذه المعاناة في عبارة مؤثرة، وإن كانت تختلف من حيث إيجازها وتركيزها عن أجناس الأدب الأخرى "[2] فالمثل هو خلاصة تجربة إنسانية كما يمكن أن نقول إنه نتاج خبرة أجيال من البشر في ألفاظ موجزة معبرة تحفها هالة أدبية ويدعمها منطق عقلي قد سارت بين الناس، فأصبحت موردا من موارد الإقناع، ومنبعا من منابع الإمتاع.

---

١) اللطائف ص ٧٦

٢)أمثالنا الموروثة/ د أحمد عبيد / ٥٣ .

ومن مواعظ ابن الجوزي التي ساق خلالها " المثل " موعظته التي تدور حول (قهر النفس بصوت العزيمة) حيث يقول:

" يا مقهورا بغلبة النفس، صُلْ[1]عليها بسوط العزيمة، فإنها إن عرفت جدك استأسرت[2] لك وامنعها ملذوذ مباحها ليقع الاصطلاح على ترك الحرام... إن مالت الى الشهوات فألجمها بلجام التقوى، وإن أعرضت عن الطاعات فسقها بسوط المجاهدة، وإن استحلت شراب التواني، واستحسنت ثوب البطالة فصح عليها بصوت العزم، فان رمقت نفسها بعين العجب، فذكرها خساسة الأصل... قد اجتمعت عندك جنود الهوى في بيت النفس فأحكمت حصن البطالة، فيا حزب التقى تسلحوا بسلاح العزائم وادخلوا عليها الباب !! النفس مثل كلب السوء متى شبع نام وإن جاع بصبص[3]الحر يلحا والعصي للعبد. "[4]

فهذه الموعظة توجيه تربوي للنفس الإنسانية، وتهذيب للغريزة البشرية، عن طريق الزهد في الدنيا، ومغالبة شهوات النفس التواقة إلى المحرمات، ومن هنا كانت هذه الكلمات ذات الإيقاع السريع، والتي تحمل بين طياتها علاجا فعالا باترا للنفس الأمارة بالسوء، وكأنه يهذب جيشا من العصاه العتاة، والنفوس البشرية قاهرة غالبة إذ لم تهذب وتقوم بهذه الطريقة التي ظاهرها القسوة، وباطنها الرحمة، ولكن الموعظة هكذا تفتقد الإقناع، فكان تعقيب ابن الجوزي بقوله:

" الحر يلحا والعصا للعبد "

فكان هذا المثل تصويرا مؤكدا للمعنى السابق، فأعانه على البيان والإقناع بألفاظ موجزة، فالنفس كالعبد يحتاج إلى من يسوسه ويوجهه، فكانت رمزية هذا المثل تحمل توجيهاً يعتمد على المشابهة بين الطرفين، فوقعت في النفس موقعا حسنا دفع بالموعظة إلى باب القبول.

---

١) صل : صال عليه أى سطا عليه ليقهره .

٢)استأسرت لك : أى استسلمت لأسرك

٣) بصبص : بصبص الكلب أى حرك ذنبه طمعا أو خوفا .

٤) اللطائف ص ٣٥ بتصرف

– وقد يندرج المثل عبر العظة، فلا يشعر السامع بانقطاع بين الجمل بل توافق وانتظام كارتباط السبب بالمسبب، وكالنتيجة بالمقدمات، ومن أمثلة ذلك قول ابن الجوزي في سياق موعظة أخرى:

" الفقر من الدنيا عدم كله وجود، والغنا فيها وجود كله عدم، عر ضت على نبينا صلى الله عليه وسلم بطحاء مكة ذهباً فأبى،... كان الرجل من الصحابة يدعي إلى المال حلالا فيقول لا، لا، يا معا شر الفقراء زينوا حلة الفقر بحلة الكتمان، فالفقراء الصبر جلساء الله، اصبروا على عطش الفاقة، فالحرة تجوع ولا تأكل بثدييها، إن سألتم فسلوا مولاكم،فإن سؤال العبد غير سيده تشنيع على السيد."[1]

– ففي إطار هذه الموعظة الداعية إلى القناعة، والصبر على الفقر، أدرج المثل السائر المشهور (تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها) من قبيل الإثارة والتحفيز للاستجابة، فمعنى المثل: " أن الحر يتحمل المشاق ولا يقبل كسبا خسيسا، ولا يعطي الدنية من نفسه "[2] فالمثل هنا يلعب دورا مهما فهو بمثابة القدوة والأنموذج الذي يسعى إليه العربي المسلم حيث الحرية والكرامة والأصالة، والبعد عن ذل النفس بالسؤال، وقد وضعه في إطار مناسب حيث سبقته مقدمة داعية إليه، وأعقبه بتبرير مقنع يدعم قبول المثل والاستجابة له.

– وقد يستعيض بالمثل عن التعقيب بنفسه ورؤيته الخاصة، فهو يتخذ من المثل فى هذه الحال تجسيدا لهذه الرؤية بل هو فى نظره أدعى للعظة والاعتبار كما في قوله:

" كان لبَّان يخلط اللبن بالماء، فجاء سيل فأهلك الغنم، فجعل يبكى ويقول: اجتمعت تلك القطرات فصارت سيلا، ولسان الجزاء يناديه: يداك أوكتا وفوك نفخ " (٣) (٤)

---

١) اللطائف – ص ١٠٧

٢) أمثالنا الموروثة د / أحمد عبيد / ١٧٥.

٣) أصل هذا المثل أن جماعة أرادوا اجتياز نهر وبعضهم لا يحسن السباحة، فأحضروا قربا ونفخ كل منهم فى قربته، وربط فوهتها ليحتبس بداخلها الهواء فتطفوا على الماء، ويتعلق

فالمثل هنا لا يراد به حقيقته الظاهره بل ما يومىء به ويرمز إليه، " ومن الجلي أن هذا النمط الرمزي أو(الإيحائي) في أداء المعنى يفوق في وقعه وتأثيره على نفوس السامعين أسلوب التقرير الذي يؤدي المعنى غفلا، والسبب في ارتفاع قيمة أسلوب التلويح والرمز أنه يعرض المضمون وزيادة تشبه في كثير من الأحيان أن تكون دليلا عمليا مقنعا على صدق الفكرة التي تساق من خلال المثل. " [١]

– ولعمق دلالة هذا المثل وتوظيفه طرديا مع النتيجة المترتبة على القصة السابقة اكتفى به ابن الجوزي دون تعقيب على القصة ؛ لا ستيفائه للعبرة، وقدرته على الاقناع والتلويح بالغرض.

–وقد أورد في مواعظه أمثالا أخرى مثل:

" الصيف ضيعت اللبن "[٢]

" أفصح من سحبان(٣) وائل "[٤]

" اعيا من باقل[٥]"[٦]

–وهكذا فإننا نرى أن ابن الجوزي كان دقيقا في اختياره للأمثال الموروثة وفي توظيفها خلال مواعظه، فكان لها دور فاعل في الإيجاز والإقناع، والتأكيد على سمة التواصل بين حكمة الأجداد وما يقدم من نصائح ومواعظ للأجيال اللاحقة.

***

بها فيجتاز النهر، ولما بدأوا فى الاجتياز تبدد الهواء بداخل قربة أحدهم وأشرف على الغرق فاستغاث برفاقه فقال أحدهم " يداك أو كتا وفوك نفخ " أى أنك الذى جلبت لنفسك الهلاك لأنك الذى نفخت الهواء وربطت فم القربة أمثالنا الموروثة د/ أحمد عبيد / ١٠٩.

٤) اللطائف ص ٣٩

١) أمثالنا الموروثة / ١٠٧.

٢)اللطائف ص ١٢٢

٣) سبحان : اسم رجل من وائل كان لسانا بليغا يضرب به المثل في الفصاحة والبيان .

٤)اللطائف ص ٣٨

٥)باقل : اسم رجل من ربيعة يضرب به المثل في العى (الغباء)

٦)اللطائف ص ٣٨

رابعا: الترهيب والترغيب:

من المداخل التي يلجأ إليها ابن الجوزي ليؤثر في قلوب المتلقين لمواعظه وإثارة الخوف فى نفوسهم الترهيب والتخويف والتحذير من جانب، والترغيب والتشويق والتحبيب من جانب آخر، وهو في سياق التخويف والترهيب لا يخيف من يعظهم من حاكم أو سلطان، وإنما يخوفهم من سخط الله عز وجل وغضبه ووعيده للعصاة والمخالفين !! فهو يميل إلى الترهيب لتهتز الأفئدة، وتخشع القلوب، فيكون ذلك دافعا لقبول الموعظة والتأثر بها.

ومن المواعظ التى لجأ فيها إلى الترهيب بصورة مباشرة قوله:

" **ويحك إن الموت سحاب والشيب وبله**[1] **ومن بلغ السبعين اشتكى من غير علة، والعاقل من أصبح على وجل من قرب الأجل يا هذا ! الدنيا وراءك والآخرة أمامك، والطلب لما وراءك هزيمة، وإنما العزيمة فى الإقدام، جاء طوفان الموت فاركب سفن التقى** "[2]

فالترهيب هنا متجسد فى تذكيره بالموت، وللموت رهبة وخشية، وبلوغ المشيب آية من آيات قرب الموت، وهكذا كان ترهيبه لمتلقيه من الموت بصورة مباشرة يذكرهم فيها بقربه وضرورة الاستعداد له.

وإذا استقصينا صور الترهيب ومقاصده نرى أنه قد لجأ أحيانا إلى الترهيب بصور غير مباشرة، مثل استشهاده ببعض المواقف، واستدعائه لبعض الشخصيات التى تعرضت لعذاب الله أو عقابه، أو غير ذلك من الصور التى تزعزع النفوس، والترهيب بهذه الصورة أقوى تأثيرا، وأوقع فى النفس، مثل قوله:

" **رُؤي عمر بعد موته باثنتي ع شرة سنة ف قال: الآن تخل صت من حساب !! واعجبا أقيم للحساب أكثر من سنيِّ الولاية !!.**[3]

-وقوله:

" **كان لبان يخلط اللبن بالماء، فجاء سيل فأه لك ا غنم، فج عل يبكى ويقول: اجتمعت تلك القطرات فصارت سيلا.** " [4]

---

١)وبله : مطره الشديد

٢) اللطائف – ص ٤٢

٣) اللطائف ص ٣٩

٤) السابق ص ٣٩

-وقوله:

" يانفس ذهب عرش بلقيس، وبذلى جمال شيرين[1]، و تمزق فرش بوران [2]، وبقى نسك رابعة "[3]

فإن عرض هذه المواقف واستدعاء هذه الشخصيات يدفع المتلقي إلى التفكر في العاقبة، وتمثلها في شخوصهم، فيتخيل وقد وقف للحساب كعمر أو أكثر منه، وأن ماله قد ذهب كمال صاحب الغنم، أو أنه هلك ولم يبق له إلا عمله الصالح " كرابعة " فكان هذا مدعاة لإثارة الخوف في نفسه ودفعها إلى ترك الذنوب.

وإذا كان ابن الجوزي قد مال في كثير من مواعظه التي ضمنها " اللطائف " إلى الترهيب، فإنه لم يغفل جانب الترغيب كما في موعظته التي يدعو فيها إلى طلب العلم والعمل به، ويرغب فيه يقول:

" العلم والعمل توأمان، أمهما علو الهمة. أيها الشباب جوهر نفسك بدراسة العلم، وحلها بحلية العمل، فإن قبلت نصحي لم تصلح إلا لصدر سرير أو لذروة منبر، من لم يعمل بعلمه لم يدر ما معه، حامل المسك إذا كان مزكوما فلا حظ له فيما حمل، بحر قلب العالم يقذف إلى ساحل اللفظ جواهر النطق، فتلتقطها أكف الفهم، تالله إن العالم لخاتم خنصر الدهر. أيها المعلم ! تثبت على المبتدىء (و قدر في السرد)[4]، فالعالم رسوخ والمتعلم قلق. ويا أيها الطالب تواضع في الطلب، فإن التراب لما ذل لأخمص القدم صار طهورا للوجه، لا تيأس مع مداومة الخير أن يقوي ضعفك، فالرمل مع الزمان يستحجر. " [5]

وهنا يبدو ابن الجوزي في ترغيبه سهلا لينا لمناسبة المقام، فالدعوة إلى العلم لا تتأتى بالقسوة والرهبة في القول، بل تحتاج إلى بسط وترغيب ليكون الإقبال وتزول الرهبة، فطلب العلم لا يجدي إن كان القلب خاليا من الرغبة فيه

---

١) اسم إمرأة مجهولة

٢) بوران : هى بنت الحسن بن سهل، زوجة الخليفة المأمون العباسى، ليس فى تاريخ العرب زفاف أنفق فيه ما أنفق فى زفافها على المأمون سنة ٢٠٩هـ

٣) اللطائف ص ١١٤

٤)سورة سبأ : الآية ١١

٥) اللطائف – ص ٧٧

والحب له، فهيأ الإمام لطلبه صورة لآمال مشرقة حين قال " فإن قبلت نصحي لم تصلح إلا لصدر سرير أو لذروة منبر " وهيأ الوسيلة وهي المعلم فدعاه إلى تثبيت الطالب لما قد يصيبه من قلق واضطراب.

وإذا كان صاحب اللطائف قد لجأ إلى الترغيب تارة، وإلى الترهيب تارة أخرى فإنه زاوج في بعض مواعظه بين الترغيب والترهيب، " وهو في مزاوجته بين الترغيب والترهيب متأثر بروح القرآن الكريم، إذإن القرآن الكريم في الترغيب لا يضرب على جهة واحدة لإثارة دوافع الإنسان، ولكن يعتمد عليهما معا، وذلك لأن استخدام الترهيب وحده قد يؤدي إلى اليأس والقنوط، فيندفع الإنسان إلى عمل الشر غير مبال بما يناله يائسا من رحمة الله واستخدام الترغيب وحده قد يؤدي إلى الدعة والتكاسل واستيلاء الأمل في رحمة الله فتغفل النفس. " [١].

ومن مواعظه التي زاوج فيها بين الترغيب والترهيب قوله:

" إذا أراد القدر نفع شخص هيأ قلبه لقبول النصائح، وساق إليه موعظة على فراغ الفكر سوق المطر إلى الأرض الجرز[٢]." يخرج به زرعا مختلفا ألوانه"[٣]،فإذا أعرض القدر عن شخص ألقاه في بحر من الغفلة لجي، فكلما فتح عينه رأى " ظلمات بعضها فوق بعض " [٤] نجايب [٥] السلامة مهيأة للمراد، وأقدام المطرود موثقة بقيود الغفلة."[٦].

– فقد زاوج بين الترغيب والترهيب ؛ ليكون المتلقى بين دفتين كلتيهما ذات إيقاع مختلف من الجذب والتأثير فهو بين خوف ورجاء، بين رهبة وأمل يرجو النجاة ويخاف العذاب والهلكة، ومن هنا يكون التأثير أوقع في النفس وأكثر ثباتا.

---

١) مواعظ ابن الجوزي – د/عرفة حلمي عباس –ص ٢١٤

٢)الجرز : أرض لا تنبت كأنها تأكل النبات أكلا .

٣) سورة الزمر : الآية ٢١

٤) سورة النور : الآية ٤٠

٥) نجايب : فضائل وكرائم

٦) اللطائف – ص ٢١

– وهكذا يتراءى لنا الإمام ابن الجوزي من خلال عرض مواعظه يؤثر الترغيب والترهيب كمدخل من مداخل التأثير في المتلقى، فقلبه متقلب بين الوجل والأمل، والخوف من العقاب ورجاء الثواب، وهذا مما يوقظ النفوس ويعلي الهمم.

۞۞۞

خامسا: مؤثرات تعبيرية شتى:

تعد الموعظة من حيث تأثيرها في المتلقي فنا من الفنون الأدبية التي تستدعي جذبا وتأثيرا ومشاركة وجدانية بين الواعظ وجمهوره، ومن هنا فقد سعى الوعاظ إلى تخير الوسائل الفنية التعبيرية التي من شأنها التأثير في المتلقين وجذب انتباههم.

وقد تعددت هذه الوسائل الفنية، ومن أبرز هذه الوسائل التي لجأ ابن الجوزي إلى استخدامها كمدخل جذب وإثارة وتشويق: الاستفهام، والنداء، وأسلوب الشرط والقسم والتحذيروالإغراء،... وغيرها.

ومن الملاحظ أن صاحب اللطائف أجاد توظيف تلك الوسائل في الإطار المناسب لكل منها، بحيث تقع في نفس المتلقي، فيتلقاها بالقبول، ويكون لها من التأثير ما يتناسب وطبيعة الموعظة شكلا ومضمونا، ويجمل بنا أن نلقي الضوء على هذه الوسائل وطبيعة تأثيرها من خلال إيراد ابن الجوزي لها في سياق مواعظه في " اللطائف ".

من المعروف أن الاستفهام " من التراكيب الفنية ذات العطاء المتجدد، التي يستطيع الأديب أن يفرغ فيها هو اجس مشاعره، وخواطر نفسه، فالاستفهام كلمة قليلة المبنى وأدواته معدودة، ولكن عن طريقه تستطيع أن تنكر وتقرر وتعظم وتحقر وتنفي... إلى غير هذه الأغراض، وهذه العطاءات التي لا يمكن حصرها. "(١)

وهو من الوسائل الفنية التي تكثف الرؤية التعبيرية من خلال توظيفها من زوايا متعددة، يتبع ذلك نفاذها إلى مشاعر المتلقي سواء استخدم الاستفهام على صورته الحقيقية أم نفذ إلى دلالات مجازية أخرى، وهو يضع المتلقي في إطار من تجاوب المشاعر وتفاعلها مع الذهن.

---

١) دراسة بلاغية في ديوان الصعاليك – د / حنان على أحمد شعل –ص ٢٧٩، ٢٨٠ بتصرف (رسالة ماجستير)جامعة الأزهر.

ومن هنا فإن ابن الجوزي التمس الاستفهام كوسيلة فنية أفرغ من خلالها خواطره وبثها إلى المتلقي، فكانت أوقع تأثيرا ؛ لأن إفراغ المعنى في قالب الاستفهام أكثر إثارة وتشويقا وإيجازا من التعبير المباشر. ولنتأمل بعض تلك السياقات في اللطائف.

ها هو ذا يورد في سياق ما يحكيه عن ندم أبي البشر آدم عليه السلام عندما جعل يقارن بين ما كان فيه في الجنة وما صار إليه بعد أن أهبط إلى الأرض قول القائل:

هل الأعصر اللائي مضين يعدن لي كما كن لي أم لا سبيل إلى الرد ؟ " [1]

– فالاستفهام هنا يصور قلق آدم وتمنيه للعودة إلى الجنة، فهذا الاستفهام الذي طرحه صاحب المقولة يثير في نفس السامع أو القارىء حسرة وإشفاقا على ما فقده آدم.

وقد يحمل الاستفهام معنى التوبيخ كقوله:

" **أتدري كيف مر عليهم الليل، ألك علم بما جرى للقوم ؟!.**"[2]

فهذا الاستفهام مع ما يحمله من توبيخ موجه إلى " الغافلين " عن قيام الليل، إلا إنه يثير في نفوسهم شوقا إلى قيام الليل ؛ لا فتقادهم اللذة التي ينعم بها القائمون، وهذا ما يدعو داعي العزيمة لاستنهاض دفقات القلب الذي أصابه الخمول واستكان إلى الدعة والغفلة، ويزداد الصراع بين قوة العاطفة الصادقة المسيطرة على الموقف والنفس الأمارة بالسوء، فيستمر الواعظ في إلقاء دفقات شعورية من خلال وسائل التأثير المختلفة، ليستمر الإقبال وتنهض النفوس.

وفي إطار توجيه اللوم، واستبطاء العزيمة يلقي استفهامه للمتلقي فيقول:

" يا مخذول التواني، يا مخدوع الأماني غرق مركب عمرك في بحر الكسل. ويحك من لازم المنام لم ير إلا الأحلام، متى تفتح عين عزمك. فياطول هذا الكرى، أما تستنشق ريح السحر ؟! أما تجد برد هواء الفجر، أما تعاين ضوء المشيب، أما يؤلمك عتاب الدهر ؟!"[3]

---

١) اللطائف – ص ٢١

٢) اللطائف – ص ٣١

٣) اللطائف –ص ١٣٠

فقد وجه نداءه إلى طائفة من العباد يحفهم التواني ويغرقهم الكسل، فأجمل شعوره بالاستبطاء في الاستفهام الموجه إلى هذه الطائفة، ويدعمه شعور بالتعجب ويكثفه استفهام لاحق " أما تستنشق ريح السحر ؟ " ولا يخفى ما في هذا الاستفهام الذي ينقل شعوره بالتعجب من حالهم... على المتلقى، فيستشعر اللوم والتأنيب، فينتفض من سباته، وينقذ نفسه من الغرق في الذنوب، فيستجدي الراحة في القيام، ولم يكتف بذلك بل عمد إلى إثارة الخوف في نفسه عندما ذكره بالمشيب، بقوله:

"أما تعاين الشيب ؟! أما يؤلمك عتاب الدهر ؟! "

إذ يجسد رؤيته للغفلة المسيطرة عليه، فكان ذلك دافعا لليقظة والانتباه إلى فوات الفرص وانقضاء العمر، فيستدعي ذلك إقباله على التوبة.

***

ومما وظفه صاحب اللطائف من وسائل التعبير المؤثر أساليب النداء، وهو من أكثر الأساليب الفنية جذبا وتشويقا وإثارة للانتباه، ولا غرو إذ ورد في كتاب الله المعجز بيانه وأثره، كقوله تعالى " يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم " [1]، " ياأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله " [2] ، " يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض ".[3]

ولتأثيره في السامعين مال كثير من الخطباء وفي مقدمتهم الرسول الكريم– ﷺ– إلى افتتاح خطبهم ومواعظهم به، وقد يأتي في ثنايا كلامهم.

وقد فطن ابن الجوزي إلى مدى تأثيرها كوسيلة تنبيه وإثارة وتشويق، فظهرت بصورة واضحة في مواعظه، فقلما تخلو منه موعظة، ويكثر استحضاره في المقدمة، حيث يوقظ الأذهان وينبه الحواس.

- ومن المواعظ التي افتتحها بالنداء قوله:

" يامؤخرا توبته بمطل التسويف، لأي يوم أجلت " [4]

---

١) سورة الحج الآية ١
٢) سورة فاطر الآية ١٥
٣) سورة ص الآية ٢٦
٤) اللطائف ص ٣٣

وهنا نلاحظ أنه افتتح موعظته بأسلوب النداء، فوقع تأثيره على المتلقي من عدة زوايا، فهو يحمل شعورا بالأسى والحزن على حالهم أجمله في قوله: (يا مؤخرا توبته)، ومن زاوية أخرى كان لهذا النداء وقعه المؤثر على المتلقى، حيث وضعه في مجال حديث مع النفس.. هل ينتمي إلى هذه الفئة أم لا، هل هو مقصود بهذا التوجيه أم إنه قد تاب وأخلص وأناب إلى الله... فاجتمعت المشاعر المتلاقية المتفاعلة بين الواعظ والمتلقي لتمثل أداة تنبيه وإثارة ويقظة؛ لتخرج من إطار خصوصية الموضوع إلى عمومية التأثير.

وقد يتوالى " النداء " في مواعظه بخطوات لاهثة سريعة وإيقاع جذاب، يتوازى طرديا مع طبيعة المشاعر الثائرة ودلالتها على الموقف، فيتفق هذا وقدرتها على التأثير في المتلقى.

- ويتمثل ذلك في قوله:

" **يا تائها في ظلمة ظلمه، ياموغلا [1] في مفازة تيهه، يا باحثا عن مدية [2] حتفه، يا حافرا زبية[3] هلاكه، يا معمقا مهواة مصرعه بئس ما اخترت لأحب الأنفس إليك...** "[4]

فالناصح هنا من خلال توالي " النداء " جسد حيرته وقلقه تجاه هذه الفئة الضالة التي ضلت الطريق، وطابت لها الدنيا فنسيت أو تناست الآخرة. فكان لهذه المشاعر المكثفة أثرها على المتلقي الذي ذاب وجدانه خوفا وفزعا لتجسيد الهلاك وسوء الخاتمة فوقع النداء منه موقع التنبيه والتحذير.

ومما أورده في سياق آخر قوله:

---

١) موغلا : أي متعمقاً .

٢) مدية : الشفرة الكبيرة .

٣) الزبية : هي الحفرة في الموضع العالي تغطى فوهتها، فإذا وطئها الأسد وقع فيها .

٤) اللطائف – ص ٦٣

" واأسفاً من قلة الأسف، واحزناه على عدم الحزن، قفوا ء لى آ ثار السالكين، فاندبوا المنقطع، ليست بأطلالي، ولكن ها ر سوم أح بائي فنوحوا معي.. "[1]

فأتى بالنداء المندوب الذي خرج عن معناه الحقيقي فأفاد التحسر والألم على حال الغافلين ويتعدى هذا الشعور بالألم إلى السامع أو القارىء، حيث يدفعه هذا التعبير إلى التفكر في حقيقة هذا التحسر، فتكون تلقائية التأثير المنبعثة من الشعور بالمشاركة النفسية لعموم الفجيعة النابعة عن فقدان الصالحين.

ومن مداخل التأثير في المتلقي كما لاحظناه على " اللطائف " التوظيف الجيد لأسلوب الشرط، وما يثيره من تشويق دافعه انتظار الجواب المترتب عليه، حيث اللهفة الغريزية النابعة من نفس الإنسان لمعرفة ما غمض عليه وخفى.

وقد حفلت مواعظ ابن الجوزي بالأساليب الشرطية، وكان أكثر الأدوات استخداما " إذا " وهي " أداة لا تدخل إلا على متحتم وقوعه، ويكتسب بها المعنى استمرارا مضطردا باضطراد الشرط، فكأن الحدث وجوابه في تجدد دائم مستمر." [2]

– ولما يثيره أسلوب الشرط من تشويق وإثارة، مال إلى تلوين عباراته به كما في قوله:

" إذا وقعت عزيمة الصدق فى قلب العبد التائب رضى المَ لِك، فأنسَى المَلَكَ ما كتب، وأوحى إلى الأرض: اكتمى على عبدى !!."[3]

فإذا نظرنا إلى بداية الموعظة وجدناه ينعى مؤخر توبته ويسفه مماطلته، ويدفعه دفعا قويا إلى التوبة، ولكن البعض قد يدفعه الشعور باليأس والقنوط إلى عدم التوبة لكثرة الذنوب، فإذا ما أتى بهذا الشرط خلال الموعظة وقع موقعه من السامع على اختلاف أحواله، فيثير فى نفسه لهفة وشوقا إلى ما يترتب على الصدق فى التوبة، فإذا هو النجاة بغفران الذنب وقبول التوبة، ويظهر هذا التأثير بوضوح إذا وازنا بين أسلوب الشرط، والأسلوب المباشر فى التعبير، فإذا قال "

---

١) اللطائف – ص ١٣٤

٢) دراسة بلاغية في ديوان الصعاليك – د/ حنان علي أحمد مشعل – ص ١٤٠

٣) اللطائف ص ٣٤

التوبة طريق لغفران الذنوب " لاتضح لنا أن أسلوب الشرط أوقع فى النفس وأكثر إثارة وتشويقا.

– وقد تتوالى الأساليب الشرطية فى " اللطائف " كقوله:

" الدنيا والشيطان خارجان عـ نك، وا لنفس عدو باطن، و من أدب الجهاد:" قاتلوا الذين يلونكم " [1] **إن مالت إلى ا لشهوات فألجم ها بلجام التقوى. وإن أعرضت عن الطاعات فـ سقها بـ سوط المجا هدة، وإن استحلت شراب التوانى، واستحسنت ثوب البطا لة فـ صح عليـ ها بصوت ا لعزم، فإذا رمـ قت نفـ سها بـ عين العـ جب، فذكرها خسا سة الأصل."**[2]

يتطلع الكثيرون إلى وسائل لعلاج نفوسهم، حيث يضعفون أمام الشهوات، فتميل النفس إلى الهوى، وتنسى سبب وجودها، وما يترتب على ذلك من صراع بين العزيمة وضعف النفس، فها هو ذا ابن الجوزى يقدم لهم العلاج مستخدما هذه الأساليب الشرطية المتوالية المدعمة لصور جهاد النفس، مما يثير فى نفس المتلقى شوقا لمعرفة الداء حيث استعصى الدواء.

۞۞۞

ومما اصطنعه ابن الجوزي من وسائل التأثير التعبيري أسلوب القسم ؛ تأكيدا لما يقسم عليه، وبثا لليقين في نفوس جمهوره. ومن شواهد ذلك قوله:

" فإنك والله ما لم تجد مرارة الدواء فـي حلقك لم تقدر عـ لى ذرة من العافية فى بدنك."[3]

حيث يلتمس صاحب اللطائف ما يكسب مواعظه تأكيدا وثبوتا ولذلك فإنه يلجأ إلى القسم، وخاصة فى المواضع التى يشعر فيها بنفور وضعف قبول، فيلجأ للقسم لتأكيد قوله، فإنه حين يطلب من الإنسان القسوة على النفس بقهرها ومنعها من الملذات، فقد يعرض البعض لعدم الثقة وقسوة الطلب، وما يترتب عليها من تهاون وفتور، فيؤكد موعظته بالقسم وقد يدعمها بتعليل وشاهد يجسد الرأى

---

١)سورة التوبة الآية ١٢٣

٢) اللطائف ص ٣٥

٣) المصدر السابق ص ٣٥

ويوضح الفكرة كقوله: **" ما لم تجد مرارة الدواء فى حلقك لم تقدر ء لى ذرة من العافية فى بدنك "**

فيقع القول من النفس موقع القبول من خلال القسم المدعم بالدليل.

-وكقوله:

" ويحك انتبه لاغتنام عمرك، فكم يـ عيش الحـ يوان حيران، الأ سقام تزعج الأبدان، فلابد من النحول ضرورة، كأنك بك فى لحدك، على فراش الندم وإنه والله لأخشن من الجندل[1] "

فالسياق هنا يستدعى القسم، حيث أن اللحد أمر خفى على الإنسان لا يدركة إلا بعد الموت، ولو أدرك طبيعة هذه الحياة البرزخية لدفعه الخوف إلى الخشية ولذا أدرك ابن الجوزى حاجته إلى القسم ليؤكد تصويره، وليدفعه إلى التصديق والقبول.

❁❁❁

وفي ختام ما نسجله لابن الجوزي من وسائل التأثير اصطناعه لأسلوب التحذير والإغراء ؛ إذ لجأ عن طريقه إلى التواصل مع المتلقى، لما فى هذا الأسلوب من أثر فى تنبيه السامع إلى أهمية ما يليه، بل ويقع فى نفسه رهبة وخشية تدفعه إلى إيقاظ حواسه ومشاعره لاستقبال ما يعرض عليه ويتمثل ذلك فى قوله:

" إياك والذنوب، فلولم يـ كن فيـ ها إلا كرا هة الل قاء فكـ فى بـ ها عقوبة."[2]

– فالتحذير هنا يتمخض عنه شعور بالخوف والوجل يدفع بالإنسان إلى ضرورة البعدعن الذنب والجفول منه، ولذلك فإنه يؤكد تحذيره من الذنوب بقوله: " فلو لم يكن فيها إلا كراهة اللقاء فكفى بها عقوبة " وهو بذلك يؤكد المقصود من تحذيره وهو العقاب المترتب على الذنب. ومثله قوله في سياق آخر:

" الحذار الحذار " أن تقول نفس ياحسرتى "[3]

-فعندما كرر كلمة " الحذار " فهو للتنبيه على جليل ما يتبع هذا التكرار.

---

١) الجندل : الحجارة الغليظة . اللطائف /٤٢ .

٢) اللطائف ص ٧٢

٣) السابق ص ٤٢

ومن مداخل التأثير الإغراء بالشيء المحبوب، والكسب النافع كقوله:

" **الصبر الصبر أيها المحارب، ولا تخف من كمين " واستفزز** " [1] [2]

– فالتكرار هنا بدافع الإغراء والتحفيز على مواصلة الصبر، وعدم الخضوع لمصائد الشيطان بالواقوع فى براثنه.

– وهكذا كانت الوسائل الفنية المتنوعة التى لجأ إليها بن الجوزى من مداخل التأثير فى المتلقى، بما تحققه من إثاره للانتباه وتشويق للسامعين وجذب لنفوسهم، تجاوبا مع ما يسوقهم لهم من نصائح وعظات، فكانت لونا من ألوان القول المؤثر الغرض منها إضفاء القبول والتأثير فى السامعين.

❁❁❁

الخاتمة:

لعلنا نستطيع في ختام هذه الدراسة الموجزة التي طوَّفنا فيها حول رسالة " اللطائف في الوعظ " لابن الجوزي أن نستخلص النتائج والملاحظات التالية:

١) عالج ابن الجوزى موضوعاته الوعظية بأسلوب أدبى مشوِّق، وهو فى عرضه لموضوعات وعظه وقضاياه استخدم في الأعم الأغلب أسلوب الإيحاء والرمز لما يريد، من خلال لوحات فنيه مليئة بالحركة والحياة المتدفقة، يعمق الفكرة ويصوغها فى إطار من الإقناع ولمحات من الإمتاع.

٢) كانت لابن الجوزي براعات أدائية إذ عمد إلى توظيف الموروث الديني الإسلامي من القرآن الكريم، والهدي النبوي الشريف، وعبارات الصوفية وإشاراتهم ومواجدهم، كما وظف الموروث الأدبي من شعر رقيق معبر وقصص من أخبار الصالحين والزهاد وأولي العزم من أهل الطاعات وأهل الشفافية وغير ذلك على نحو ما فصَّلنا.

---

١) سورة الإسراء آية ٦٤

٢) اللطائف ص ٥٩

٣) تنوعت مداخل التأثير والتشويق التى أدرجها ابن الجوزى من خلال مواعظه، وكان فى مقدمتها الشعر بما فيه من صور وموسيقى وعاطفة جياشة تدفع السامع إلى مزيد من الإقبال والإثارة، والقصة التى أدرك ابن الجوزى قيمتها الأدبية والنفسية وتأثيرها على المتلقى بما تحويه من أداء وتعبير وصراع وتشويق، وكان اختياره للقصة فى مجال الوعظ اختيارا دقيقا يتوافق مع طبيعة الموعظة، وكلل جهوده باستدعاء المواقف والمشاهد ذات التأثير الإيجابى، فاستقى منها ما يوحى برؤيته الإبداعية فى إطار الوعظ والتوجيه

٤) تعددت صور الترغيب والترهيب في مواعظه، فقد يلجأ إلى التصريح تارة وإلى الإيحاء به تارة أخرى، وقد يزاوج بين الترغيب والترهيب فيكون المتلقي بين دفتين كلتيهما ذات إيقاع مختلف من الجذب والتأثير.

٥) التمس ابن الجوزي في " اللطائف " عدة وسائل فنية، لتكون مداخل تأثير في المتلقي بما تؤدي إليه من تنبيه وتشويق وتفاعل إيجابى بالإضافة إلى دلالات أخرى متنوعة تختلف باختلاف الأداة وتأثيرها، وهذا من شأنه تكثيف الرؤية الإبداعية وتفعيلها.

٦) تدل طريقة ابن الجوزي في " اللطائف " على أن الخطيب أو الواعظ أو الداعية بصفة عامة يحقق نجاحا وقبولا إذا أضفى على فكره ووعظه ونصحه لبوسا من جمال التعبير، ومعرضا بديعا من الأسلوب المشوق المؤثر، بحيث تتعاطف مع وعظه ونصحه قلوب المتلقين وعقولهم، وتقع أقواله ونصائحه وتوجيهاته من نفوسهم موقعا حسنا، ومن ثم يحصل لجهده الأثر المطلوب والغاية المرجوة، والنتيجة المبتغاة. ولا غرو أن غدت الخطابة بألوانها المتعددة وعظية وغير وعظية سلاحا فاعلا في التأثير والإقناع، وحشد المؤيدين، واستمالة الأنصار !!

❁❁❁

المصادر والمراجع

أولا: المصادر:

- اللطائف في الوعظ – أبو الفرج بن عبد الرحمن بن علي بن الجوزي – تحقيق – محمد إبراهيم سنبل – ط / دار الصحابة للتراث ١٤٠٠ – ١٩٩٠ (١)
- أخبار الأذكياء – أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي
  تحقيق / محمد مرسي الخولي / ط ١٩٧٠ م
- المدهش – لأبي الفرج بن عبد الرحمن بن علي الجوزي – ط / دار الجيل – ١٩٧٧ م
- الشفاء في مواعظ الملوك والخلفاء – أبو الفرج بن عبد الرحمن بن علي بن الجوزي – تحقيق د / فؤاد عبد المنعم أحمد – ط ١٩٧٨ م– ١٣٩٨ هـ .
- صيد الخاطر – أبو الفرج بن عبد الرحمن بن علي بن الجوزي – ط / دار الكتب العلمية – بيروت.
- المواعظ والمجالس – أبو الفرج بن عبد الرحمن بن علي الجوزي – حققه / محمد إبراهيم سنبل – ط / دار الصحابة للتراث– ط / الأولى – ١٤١١ هـ – ١٩٩٠ م

ثانيا: المراجع:

- ❖ الأدب الإسلامي بين الأصالة والمعاصرة – د / عبد الجواد محمد المحص – ط ١٤٢٥ هـ – ٢٠٠٥ م
- ❖ الأدب الصوفي والإسلامي – د / عبد الباسط أحمد علي حموده – دار الرسالة – ط ١٩٨٠ م
- ❖ الأساليب الإنشائية في ضوء القرآن الكريم – د / بسيوني عرفه رضوان – ط/ الرسالة بدون
- ❖ استدعاء الشخصيات التراثية – د /علي عشري زايد– ط ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ م

(١) لاحظت على هذه النشرة وجود أخطاء كثيرة فقمت بتصويب كثير منها من نشرات أخرى ألكترونية مثل : مكتبة الموسوعة الشعرية، والمكتبة الشاملة لذا لزم التنويه .

❖ أمثالنا الموروثة (قيمتها الأدبية والفكرية) – د /أحمد عبد الغفار عبيد ط ٢٠٠٧ م
❖ تأثير الفكر الديني في البلاغة العربية – د / مهدي صالح السامرائي –جامعة بغداد – ط ١٣٩٧ هـ – ١٩٧٧ م
❖ تجارب في النقد الأدبي التطبيقي من منظور إسلامي – عودة الله منيع القبسي – ط ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥ م
❖ تربية المرأة عند ابن الجوزي – د / محمد بن عبد الله بن حسين – ط دار ابن الجوزي – الرياض – بدون.
❖ –التوظيف الفني للشعرفي القصة العربية القديمة– أبو زيد بيومي– ط الأولى– بدون
❖ دراسة بلاغية في ديوان الصعاليك – د / حنان علي مشعل – رسالة ماجستير – جامعة الأزهر. ٢٠٠١
❖ رحلة إلى الدار الآخرة – أ / محمود المصري – ط / الثانية – دار التقوى – ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣ م.
❖ شعرية النص الصوفي في الفتوحات المكية – د / سحر سامي – الهيئة العامة للكتاب – ط ٢٠٠٥ م.
❖ من بدائع الأدب الإسلامي – د / محمد بن سعد الدبل – من إصدارات نادي المدينة المنورة – بدون.
❖ منهاج الصالحين – أبو الحسن الندوي – ط ١٩٨٤ م
❖ منهج الفن الإسلامي – أ / محمد قطب – ط دار الشروق ١٩٨٧ م.
❖ مواعظ ابن الجوزي – د / عرفه حلمي عباس – ط ٢٠٠٨.
❖ المعجم الوسيط ط / الثالثة – ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥ م.

'awla: almisadir:

- allatayif fi alwaez

- 'abu alfaraj bin eabd alrahman bin ealii bin aljawzii

- tahqiq - muhamad 'iibrahim sinubal - t / dar alsahabat lilturath ١٤٠٠ - ١٩٩

- 'akhbar al'adhkia' - 'abu alfaraj eabd alrahman bin ealii bin aljawzi tahqiq / muhamad mursi alkhulii / t ١٩٧٠ m - almudhish - li'abi alfaraj bin eabd alrahman bin ealii aljawzii

- t / dar aljil - ١٩٧٧ m - alshifa' fi mawaeiz almuluk walkhulafa' - 'abu alfaraj bin eabd alrahman bin ealii bin aljawzii - tahqiq d / fuad eabd almuneim 'ahmad - t ١٩٧٨ mi- ١٣٩٨ hu . - sid alkhatir - 'abu alfaraj bin eabd alrahman bin ealii bn aljawzii - t / dar alkutub aleilmiat - bayrut.

- almawaeiz walmajalis - 'abu alfaraj bin eabd alrahman bin ealiin aljawzii - haqaqah / muhamad 'iibrahim sinabal - t / dar alsahabat liltarathi

- t / al'uwlaa - ١٤١١ ha - ١٩٩٠

thanya: almrajie:

ϖ al'adab al'iislamiu bayn al'asalat walmueasarat - d / eabd aljawad muhamad almihas - t ١٤٢٥ ha - ٢٠٠٥ m

ϖ al'adab alsuwfiu wal'iislamiu - d / eabd albasit 'ahmad eali hamuwdah - dar alrisalat - t ١٩٨٠ m

ϖ al'asalib al'iinshayiyat fi daw' alquran alkarim - d / bisyuni earafah ridwan - ta/ alrisalat bidun

ϖ astidea' alshakhsiaat alturathiat - d /eli eishri zayid- t ١٤١٧ hi - ١٩٩٧ m

ϖ 'amthaluna almawrutha (qimatuha al'adabiat walfikriatu) - d /'ahmad eabd alghafaar eubayd t ٢٠٠٧ m

ϖ tathir alfikr aldiynii fi albalaghat alearabiat - d / mahdi salih alsaamaraayiy - jamieat baghdad - t ١٣٩٧ ha - ١٩٧٧ m

ϖ tajarib fi alnaqd al'adabii altatbiqii min manzur 'iislamiin - eawdat allah manie alqibsi - t ١٤٠٥ ha - ١٩٨٥ m

ϖ tarbiat almar'at eind abn aljawzi - d / muhamad bin eabd allh bin husayn - t dar abn aljawzii - alriyad – bidun

. ϖ -altawzif alfaniyu lilshaerafii alqisat alearabiat alqadimatu- 'abu zayd biumi- t al'uwlaa-bidun

ϖ dirasat balaghiat fi diwan alsaealik - d / hanan eali masheal - risalat majistir - jamieat al'azhar. ٢٠٠١

ϖ rhalat 'iilaa aldaar alakhirat - a / mahmud almasri - t / althaaniat - dar altaqwaa - ١٤٢٤ ha - ٢٠٠٣ mi.

ϖ shaeriat alnasi alsuwfii fi alfutuhat almakiyat - d / sahar sami - alhayyat aleamat lilkitab - t ٢٠٠٥ mi.

ϖ man badayie al'adab al'iislamii - d / muhamad bin saed aldabal - min 'iisdarat nadi almadinat almunawarat - biduni.

ϖ minhaj alsaalihin - 'abu alhasan alnadawiu - t ١٩٨٤ m

ϖ manhaj alfani al'iislamii - a / muhamad qutb - t dar alshuruq ١٩٨٧ mi.

ϖ mawaeiz abn aljawzii - d / earafah hilmi eabaas - t ٢٠٠٨.

ϖ almuejam alwasit t / althaalithat - ١٤٠٥ hi - ١٩٨٥ mi.

المحتويات

الموضوع	الصفحة
التقديم	٧٨١
التمهيد	٧٨٣
المبحث الأول إطلالة على المحتوى والتناول الإيحائي	
١) عقوبة الذنب	٧٩٠
٢) التأمل في خلق الله	٧٩٣
٣) صفات الله تعالى	٧٩٦
٤) التوبة	٨٠٠
٥) الموت	٨٠٢
٦) التحذير من الدنيا	٨٠٥
٧) الإخلاص في العبادة	٨٠٨
المبحث الثاني توظيف الموروث الديني	٨١١
المبحث الثالث مداخل التأثير والتشويق	
أولا: الشعر	٨٢٥
ثانيا: القصة	٨٣٣
ثالثا الأمثال	٨٣٧
رابعا: الترهيب والترغيب	٨٤١
خامسا: مؤثرات شتى	٨٤٤
الخاتمة	٨٥٢
المصادر والمراجع	٨٥٤
فهرس المحتويات	٨٥٦